الدكتور نافع عبد الله

محمد بن القاسم الثقفي

فاتح السند

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م


محمد بن القاسم الثقفي
فاتح السند



هــذا الكتــــاب

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد...

فإن القـادة المسلمين الفاتحين في العصر الإسـلامي (صـدر الإسلام والعهـد الأموي)، قـد جـاهدوا بأمـوالهم وأنفسهم في سبيل اللـه، واجتـازوا الصحارى، وعبروا الأنهار، واخترقـوا البحار، لنشر الإسلام بين الشعوب، في مشارق الأرض ومغاربها، من سمرقند إلى الأندلس.

ومن دواعي التقدير لهم، والافتخار بهم، أنهم لم يكتفـوا بدور الجهاد والفتوح فحسب، بل أضافـوا إليه أدواراً أخـرى، حيث وطدّوا شريعـة الله تعـالى، وسُنَّة نبيّـه الكريم في ربـوع تلك الأمصار والبلاد التي فتحوها، وقاموا بوضع أسس التعليم والثقافة، ودأبوا على تشجيع الناس هناك على تعلّم اللغة العربية، لغة القـرآن المجيد، لتيسير فهم الدين الحنيف، ومنهجه وحضارته حيث صارت البلاد المفتوحة وسكانها جزءاً من ديار الإسلام ونظام حكمه.

ومن عداد هؤلاء القادة الأبطال: محمد بن القاسم الثقفي، الذي فتح بلاد السند والهند، وهو ابن سبعة عشر عاماً، ونشر عدالة الإســلام هناك، وجعل من تلك البلاد ولاية إسلامية تابعة لعاصمة الخلافة في دمشق.

وكنت مشتاقاً لقراءة سيرة هذا القائد الشــاب، بل تمنيت لو في المستطاع أن يكون لدينا كتيّب، أو كتاب عنه، نجد فيه ما يروي غُلَّة العطشان.

ومن حسن الحظ أنني وجدت ما كنت أتطلع إلى تحقيقه عندما التقيت بالأستاذ الدكتور نـافع عبـدالله، حيث كلفتـه بالقيـام بهذا البحث، الـذي ينطـوي على جهـد علمي في جمع المعلومـات من كتب المغازي والفتوحات، والمصـــادر التاريخية القديمـة، والمراجع الحديثة، ودور الكتب، والـدوريات، حتى حصلنـا على سيرة متكـاملة، عـن القائد البطل محمـد بن القاسم الثقفي، تحتوي على نسبه ونشأته وفتوحاته وأعماله.

وختاماً أشكر المؤلف على هذا البحث الذي قدّمه لنا في كتاب مستقل، وجزاه الله عنا خير الجزاء.

بطي بن حميد بن راشد بن بشر

دبي - الإمارات العربية المتحدة ١٩٩٦/١٢/١٩م

المقدمة

موضوع هذا البحث هو: «محمد بن القاسم الثقفي» أحد قادة الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي. إنه فاتح السند، بل هو أول قائد عربي مسلم، كتب الله له أن يتوغل في شبه القارة الهندية، ويزرع أولى نبتة للإسلام هناك، وهو لايزال في ريعان الشباب.

ومما دعا إلى اختيار الموضوع المشار إليه، والكتابة فيه، عوامل كثيرة، وذات أهمية، أذكر منها:

قلة الدراسات حوله من جهة، وندرة الأبحاث عنه من جهة أخرى، فضلاً عما كان لهذا القائد الشاب من بطولات رائعة، وأعمال جليلة في بلاد السند، حصل بها الخير العميم، والنفع الوفير للعرب والمسلمين في عصره، وما بعده. وسجلها التاريخ له في صفحات مشرقة، يتوهج نورها تيّاهاً على حقب الزمن.

والهدف المنشود من هذا البحث، هو أن لا يبقى البطل ابن القاسم مغموراً بين الأجيال، أو متأرجحاً بين المعلوم والمجهول، أو موزعاً بين الحقيقة والخيال. إذ أنه شخصية تاريخية حقيقية تدخل في عداد الشخصيات البارزة في سجل تاريخنا العربي الإسلامي.

ومن هنا جاءت الرغبة في التوجه إلى القراءة، والتقصي في البحث، وجمع المعلومات من المصادر والمراجع، ثم كانت عملية التحليل والدراسة لكل ما تم الحصول عليه، حتى انتهى الأمر إلى صياغة المادة المطلوبة، وكتابتها في إطار مخطط مرسوم.

أما المخطط الذي كان الاعتماد عليه في رسم جوانب الموضوع، فيتألف من قسمين رئيسين، وملحق. وذلك على النحو التالي:

القسم الأول: محمد بن القاسم الثقفي: التعريف به. ويشتمل على فصلين اثنين. يتحدث الأول منهما عن نسبه، ويتناول الآخر ترجمة حياته.

والقسم الثاني: محمد بن القاسم الثقفي: فاتح السند. ويتكون من ثلاثة فصول. الأول يبينّ حالة السند قبل الفتح الإسلامي، ويعرض الثاني لفتح السند وطبيعته، والثالث يشمل محمد بن القاسم أميراً على السند.

وأما الملحق: فيختص بـ «الأوردو» لغة السند: في أصلها، ونشأتها، ومراحل تطورها، وما هي عليه في القرن العشرين. فالحديث عن تاريخ السند يتطلب بالضرورة كلمة عن الأوردو.

والله من وراء القصد

١٦ / ١١ / ١٩٩٦م — نافع عبد الله

القسم الأول

محمد بن القاسم الثقفي

التعريف به

- نسبه
- ترجمة حياته

الفصـــل الأول
نـــسبـه

النسب لغةً:

معناه: القرابة، أو القُربى. ويُقال: نسبه في بني فلان: هو منهم(١)، وللنسب عند العرب شأن عظيم، لأنـه سبب التعـارف، وسلّم إلى التـواصل، والتعلّق والارتباط، بـه تتعـاطف الأرحام الواشجـة(٢). ولذلك لا يزال العربي يقيـم له وزناً، ويفتخر به اعتـزازاً، لما له من صلة وثيقة بتماسك النظام القبلي وبقائه، أو ارتباط حميم بتكوين المجتمع وبنائه.

وإن كان الخالـق عز وجل قد حكـم بأن الأكرم من بني الإنسـان هو الأتقى لصـلاحه وإيمانه، وأن الكـافر هـو الأشقى لشركه وعصيـانه، فقـد جعل تعارف النـاس بأنسابهم غرضاً له تعالى في خلقه إيّانا نحن بني آدم شعوباً وقبائل. ومن هنا جاء:

علم النسب:

الذي هو علم بـه يكون التعارف، وعلينا أن نتعلّمـه(٣) مصداقاً لقولـه تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكـر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفـوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾(٤).

ومن الغرض في علم النسب الذي لا يسع أحداً جهلُـهُ، أن يعرف المرء أباه، وأمه، وذوي قـرباه. فمن لم يعـرف النسب لم يعـرف الناس. حيث قـال رسـول الله ﷺ: «تعلّمـوا من

---

(١) مجمع اللغة العـربية: المعجم الـوجيز، ط١، القاهـرة ١٩٨٠م، مادة «نسب». ومعجم المنجـد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٨م، مادة «نسب».

(٢) ابن عبـد ربه الأنـدلسي: العقد الفـريد، ط٣، دار الكتب العلميـة، بيروت، ١٩٨٧م، ج٣، ص٢٦٥. و د. جـواد علي: المفصل في تاريخ العـرب قبل الإسـلام، ط٢، بيروت، ١٩٧٦م، ج١، الفصل الحادي عشر، ص٤٦٦.

ومعاني المفردات: رَحِمَ فلاناً: رقّ له وعطف عليـه، والرّحمُ: القرابة، أو أسبابها.ووشجَ الشيءُ: تداخل وتشابك. والواشجةَ، أو الوشيجة: الرحم المشتبكة المتصلة.

(٣) ابن حزم الأندلسي: جمهزة أنساب العرب، ط١، بيروت، ١٩٨٣م، ج١، ص١.

(٤) القرآن الكريم (كتاب الله الخالد): سورة الحجرات: الآية ١٣.

أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأجل، مرضاة للرب»(١).

ولذلك صار من المتعارف عليه بين الناس أن يُقال: فلان بن فلان من قبيلة كذا.. وعلى هذا الأساس يكون:

التعريف بالرجل (محور هذا البحث) :

هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتّب ابن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قسيّ (ثقيف)(٢). ونسبه «الثقفيّ».

و«قسيّ» (بفتح القاف، وكسر السين، وتشديد الياء) معناه: القاسي، أو الشديد.

أما «ثقيف» (بفتح الثاء، وكسر القاف، وسكون الياء)، فهو لقب حمله قسيٌّ، ومعناه: الحاذق الفَطِنُ. ولقد غلب عليه هذا اللقب، نظراً لما كان يمتاز به من الفطنة، والحذق، والمهارة. وهذه دلائل موهبة ترمز إلى قوة استعداد الذهن لإدراك ما يرد إليه.

ولكن من هو قسيٌّ هذا؟ ثم من أين جاءه لقب «ثقيف»؟ أو ما سبب إطلاقه عليه، حتى صار اسماً له، ولا يُعرف إلا به؟

بالنسبة لتعريفه : فهو قسي بن منبّه بن بكر. وكان يقيم في وادي القرى، بين العلا ويثرب، ويعمل عند عجوز يهودية كانت تنزل هناك، فاتخذته ولداً لها، واتخذها أمّاً له، فلما حضرها الموت قالت له(٣): يا هذا، إنه لا أحد لي غيرك، أنظر إذا أنا متّ وواريتني فخذ هذه الدنانير فانتفع بها، وخذ هذه (العيدان) فإذا نزلت وادياً تقدر فيه على الماء فاغرسها،فإني أرجو أن تنال من ذلك فلاحاً بيّناً.

---

(١) هذا الحديث في «مسند الإمام أحمد»، (تحقيق أحمد شاكر)، ج٢، دار المعارف بمصر، ١٩٥٥م. وجمهرة أنساب العرب: ج١، ص٣.

وشرح المفردات: ثرا المالُ ثراءً: نما وكثر. والثراء: كثرة المال.

ونسأ الشيء أو الأمر: أخرّه. والمنسأة والنسيء: التأخير.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ج١، ص٢٦٦.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، منشورات دار صادر – بيروت، ١٩٥٧م، المجلد الرابع، ص١٠.

ولما ماتت العجوز دفنها، وأخذ الدنانير، والعيدان، ومضى سائراً حتى وصل إلى وادي «وجّ»(١)، وهو الطائف فيما بعد. وقابل سيّد هذا الوادي، وهو عامر بن الظرّب العدواني، وقال له: أنا رجل غريبٌ فأنزلني، وخائفٌ فأجرني، وعزبٌ فزوّجني. فأنزله، وأجاره، وزوّجه إحدى بناته التي يُقال لها: زينب، فأنجب منها ولدين (هما : جُشَم، وعوف) ثم ماتت، فتزوج أختها، فولدت له ولداً يقال له (دارس) فانتسب إلى اليمن(٢).

أما فيما يخص اللقب، فإن قسيّ بن منبه الذي حافظ على وصية العجوز اليهودية، قد غرس العيدان التي معه بوادي وج، وهذه العيدان في الواقع ما هي إلا أغصان مقطوعة من أشجار العنب، والتين، والرمان، وتعرف في علم النبات، أو في مجال الزراعة باسم «العُقَل»، ينجم عنها براعم، وتفرخ، ثم تزهر، وتورق، وتعقد، وتثمر.

ولما أثمرت تلك العيدان المغروسة، قال أهالي وادي وج: قاتله الله، كيف **ثَقفَ** عامراً حتى بلغ منه ما بلغ، وكيف **ثقف** هذه العيدان حتى جاء منها ما جاء، فسمّي **ثَقيفاً** من يومئذٍ(٣). وهكذا طغى اللقب، وشاع استعماله، حتى صار اسماً له.

ومع مرور الزمن كثر نسل ثقيف، وأصبح أبناؤه وحفدته يمثلون جماعة قوية الجانب، كثيرة العدد، تُعرف باسم:

قبيلة ثقيف:

القبيلة لغةً: جماعة من الناس تُنسب إلى أب، أو جد واحد. وأبو قبيلة ثقيف هو: ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرِمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ابن معدّ بن عدنان(٤).

فهذه القبيلة في هذا السياق: عربية، مضرية، عدنانية. هذا أصلها، أما بنوها الذين ربلوا، وتناسلوا، فهم عمائرها الذين عمروا ديارهم التي أقاموا بها مجتمعين، حتى تكاثرت القبيلة، واتّسعت:

---

(١) وجّ (بالأصل): هو وج بن عبدالحيّ من العماليق، وهو من الأمم الخالية.

(٢) معجم البلدان: المجلد الرابع، ص١٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٠.

(٤) جمهرة أنساب العرب: ج١، ص٢٦٦. وج٢، ص٤٨٢.

بطونها :

المراد بهم: بنو مالك بن حُطَيْط بن جشم بن ثقيف، وبنو سعد بن عوف بن ثقيف، وبنو غَيَرَة بن عوف بن ثقيف. وقد نسل من هذه البطون الثلاثة رجال مشاهير، تركوا بصمات بارزة في سجل تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام. ولسوف يأتي الحديث عنهم فيما بعد.

وهذه القبيلة (قبيلة ثقيف) لها مكان تُعرف به، أو تنتمي إليه وتقيم فيه إنّه:

موطنها:

بيئة حضر في الحجاز. وحواضر الحجاز ثلاث، هي: مكة، ويثرب، والطائف. والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدينة، أو القرية، أو الريف الذي هو أرض فيها زرع وخصب. وقد تكون الحاضرة أيضاً عاصمة البلاد، كأن تقول مثلاً: قرطبة حاضرة الخلافة الأموية بالأندلس.

إن هذه المدن، أو الحواضر الحجازية كانت أماكن إقامة ثابتة للبدو الذين استقروا فيها، وتحضرّوا، واتخذوها مواطن لهم، وإن ظلوا محافظين على نظمهم الاجتماعية الموروثة القائمة على الروابط الدموية، وأواصر النسب.

فقبيلة قريش في مكة، وتعمل بالتجارة فيها. وقبيلتا الأوس والخزرج تقومان بزراعة الأرض وغرس النخيل في يثرب.

أما قبيلة ثقيف، فموطنها:

الطائف :

ذات الاسم القديم «وادي وج» وتقع على ظهر جبل غزوان في الجنوب الشرقي من مكة، وعلى بعد اثني عشر فرسخاً منها، وترتفع نحو ستة آلاف قدم عن سطح البحر. ولما نزلت ثقيف بها، واتخذتها مستقراً لها، وبسطت سيادتها عليها، واشترت العبيد لخدمتها فيها، رأت أن تبني حول «وج» طوفاً مثل الحائط يحصّنها حتى لا يصل إليها أحد ممن يهاجمها من قبائل العرب طمعاً بها أو للاستيلاء على خيراتها.

ولما تم بناء هذا السور الذي غدا يطوف بالمدينة من جميع جهاتها، سميت «الطائف»(١).

---

(١) معجم البلدان: المجلد الرابع، ص٩.

وتمتاز هذه المدينة باعتدال جوّها، وطيب هوائها، ووفرة عيونها الجارية، وكثرة حدائقها الجميلة، وبساتينها اليانعة الزاخرة بشتى أنواع الفاكهة، حتى وصفها الجغرافيون بأنها «بقعة من الشام انتقلت إلى الحجاز»(١).

ولهذا كان أهل قريش يأتون ليصطافوا فيها، حيث يجدون كل الثمرات، كما يجدون الخمرة الصافية. وكان الأثرياء منهم يمتلكون العقارات بها، ويقرضون أهل الطائف ما يحتاجون من أموال.

ومن ناحية أخرى كانت قريش تعتمد على ما تنتجه الطائف من العنب العذب في إنتاج الزبيب الذي تضعه في ماء زمزم لسقاية الحجاج(٢).

وبالطائف توفي عبدالله بن عباس رضي الله عنهما سنة ثمان وستين للهجرة، ودفن في مسجدها وكانت ثقيف قد بنته لما أسلمت، في موضع مصلى رسول الله ﷺ(٣).

عبادتها:

كانت ثقيف في الجاهلية وثنية الديانة، تعبد الأصنام، والصنم يكون عادة تمثالاً من حجر، أو خشب، أو معدن، وكان عبدة الأوثان يزعمون أن عبادته تقرّبهم إلى الله، أما الوثن فيكون غالباً حجراً. وقد يسمى الصنم بالوثن(٤).

وصنم ثقيف: اللاّتُ، وهو من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب، ويذكر المؤرخون أن اللات صخرة مربعة بيضاء، بنت ثقيف عليها بيتاً يسيرون إليه، يضاهون به الكعبة، له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف تعظيم قريش لحرم البيت، حُرِّم على الناس قطع شجره، وصيد حيوانه، ومن دخله كان آمناً.

وسدنة اللات هم: آل أبي العاصي بن يسار بن مالك من ثقيف(٥).

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٢، ص٢٥٨، وص٢٥٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٥٩. ود. شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف، ١٩٦١م، ص٥٢.

(٣) الحميري : الروض المعطار (تحقيق د. إحسان عباس) ط٢، ١٩٨٠م، مؤسسة ناصر للثقافة ص٣٧٩.

(٤) المعجم الوجيز: مادة «صنم» والعصر الجاهلي، ص٥٥.

(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص٢٢٧، وما بعدها.

وإن ثقيفاً إذا ما قدموا من سفر، توجهوا إلى بيت اللات أولاً، للتقرب إليه، وشكره على السلامة، ثم يذهبون إلى بيوتهم. وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه أيضاً، ويقصدونه للتبرك به، ويقدمون له الهدايا والنذر، والأموال يضعونها في حفرة من الصخر تقع تحته يقال لها «غَبْغَب» وكذلك كانت له معابد كثيرة منتشرة في مواضع عديدة في الحجاز.

وصخرة اللات حولها أقوال وروايات، منها: أنها في الأصل صخرة كان يجلس عليها رجل يبيع السمن واللبن للحُجاج في الزمن الأول. وسميت باللات لأن عمرو بن لحيٍ كان يَلُتُّ(١) عندها السويق للحجيج على تلك الصخرة.

وقد انتهت إلينا أسماء رجال أضيفت إلى اللات، مثل: «تيم اللات» و«زيد اللات» و«وهب اللات» وقد أقسموا باللات، كما أقسموا بالأصنام الأخرى. وينسب إلى أوس بن حجر قوله(٢):

وباللات والعُزّى ومن دان دينَها

وباللهِ، إن اللهَ منهن أكبرُ

وقد ورد اسم «اللات» في القرآن الكريم، بقوله تعالى في سورة النجم: ﴿أفرأيتم اللات والعزّى، ومنوٰة الثالثة الأخرى﴾.

والخطاب في هذا القول الرباني الكريم موجّه للمشركين قائلاً لهم: يا معشر الكفار، أخبرونا عن هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها «اللات، والعزى، ومناة»(٣). هل لها من

---

(١) لَتَّ فلانٌ السويقَ: خالطه بسمنٍ أو غيره.

والسويق : طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير.

ولَتَّ العجينَ : بَلَّهُ بشيءٍ من الماء.

ولتّ الشيءَ : فتَّهُ وسحقه.

ويقال: فلان يَلُتُّ ويعجنُ: إذا كان ثرثاراً يُبدي ويعيد فيما يقول.

أما اللاتُّ : فهو اسم فاعل مشتق من الفعل «لتّ» نحو: بَرّ فهو بارٌّ، وعقّ فهو عاقٌّ .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص٢٣٣.

(٣) اللات في الطائف، كما ذكرنا سابقاً. أما «العزّى»: فكانت شجرة عندها وثن يعبدها غطفان. و«مناة» صنم لخزاعة يعبده أهل مكة. جمهرة أنساب العرب، ج٢، ص٤٩١.

القـدرة ما تضرّ بها أو تنفع؟ إن عبـادة هـذه الآلهة بـاطلة كليّـاً، لأن القـدرة والعظمة للـه سبحانـه وتعالى، وهـو على كل شيء قدير، فعليكـم أن تؤمنوا بـالله رب العـزة وحده، ولا تجعلوا أصنامكم أنداداً له.

مكانتها في الجاهلية:

تبرز المكانة الاجتماعية لقبيلـة ما، إذا عُرفت بأصالة نسبها، وكثـرة عددها، واشتهرت بحكمة شيـوخها، وشرف ســادتها، وكرم رجـالها، وشجاعـة فرســانها، ودفاعهـا عمن يحالفها، وحمايتها للمستجير بها. وهذه صفات، أو مزايا محببة للنفس العربية. وقد رسخ التقليد بين القبائل على تمجيدها، والتفاخر بها.

ويهمنا في هذا السيـاق أن نتعرف إلى مركز «ثقيف» ومكانتهـا بين مثيلاتها من القبائل يومذاك، بخاصة تلك التي تسكن الحواضر والمدن.

فهذه قريش ذؤابة العرب، ولها سنام المجد، وهي صاحبة مكة (أم القرى) موئل الحج، ومنتدى الشعر والخطابة، ومركز التجارة في شبـه جزيرة العرب، وخارجها، ولها أحلاف تنظّم هذه التجـارة، وتمنح الأمان لقوافلها التي تسير إلى الشـام واليمن وفلسطين وتعود منها. وإنّ سادتها يشتهـرون بالكرم بخاصة في سنوات القحط والجفـاف. فهذا عمرو بن هشام القرشي مثلا يمدحه الشاعر بقوله:

عَمــروُ العــــلا هشمَ الثــريــدَ بقـــومــه

ورجـــالُ مكـــة مسنتـــونَ عجـــافُ(١)

وهاتـان قبيلتا الأوس والخزرج (من اليمن)، ويعرفان بـاسم «الأنصار» لأنهم نصروا الإسلام، ولهم مدينـة يثرب ذات مزارع النخيل، وهم قوم من أعـز الناس نفساً، وأشرفهم همماً، ولم يؤدوا إتاوةً قطُّ في الجاهلية إلى أحدٍ من الملوك(٢).

أما ثقيف، التي مـرّ بنا أنها عـربية مضرية عـدنانيـة، فهي: ذات نسب أصيل، وأرومة كـريمة، ومنبت شريف. وقـد تفرّدت بملك الطـائف، وطيّبات أرزاقهـا، فكان أن حسـدتها

---

(١) سنتَ: ضَعُفَ وهزل. مسنتون: ضعاف.

(٢) العقد الفريد: ج٢، ص٦٥. أما الأوس فمعناه: الذئب. والخزرج: ريح الجنوب.

القبائل على ذلك، وافتعلت الحروب معها، وشنّت الغارات عليها، فصمدت لهم وجدّت في قتالهم بكل عزم وقوة بأس، فلم يظفروا منها بطائل(١)، ولا طمعوا منهم بغرّة(٢)، وتركوهم على حالهم أغبط العرب عيشاً، فضربتهم العرب مثلاً؛ فقال أبو طالب بن عبدالمطلب مشيراً إلى ذلك:

منعنا أرضنا من كل حيّ

كما امتنعتْ بطائفها ثقيفُ

أتاهم معشرٌ كي يسلبوهم

فحالتْ دون ذلكم السيوفُ(٣)

وقال بعض الأنصار:

فكونوا دون بِيْضِكُم كقومٍ

حمَوْا أعنابهم من كل عادي(٤)

ومن ناحية أخرى، أخذت ثقيف تفخر بنفسها، وتفاخر بقوة جأشها، وعلوّ شأنها، مما حقّق لها مكانة رفيعة بين الحواضر، ومركزاً مرموقاً بين القبائل، وفي هذا الصدد قال غيلان بن سلمة الثقفي(٥):

حَلَلْنا الحدَّ من تَلَعَاتِ قَيْسٍ

بحيثُ يحلُّ ذو الحسب الجسيمِ

---

(١) الطائل : النفع.

(٢) الغرّة (بكسر الغين): الغفلة أثناء اليقظة.

(٣) معجم البلدان: ج٤، ص١١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص١٢.

وبيضةُ القوم؛ حَوْزَتهُم وحمَاهُم. وبيضة الدار: وسطها.

وفلان بيضةُ البلد: إذا عُرف بالسيادة.

(٥) معجم البلدان: ج٤، ص١١.

وقـــــد علمتْ قبـــــائلُ جَـــذْم قيسٍ
وليس ذوو الجهـــالـــةِ كـــالعَليـمِ
بأنّـــا نُصبحُ الأعـــداءَ قِـــدْمـــاً
سِجـــال الموت بـــالكـأس الـــوخيمِ
وإنّـــــا نبتني شرف المعـــــالي
ونَنْعـشُ عتْرة المولى العـــــــــديـمِ

وكذلك قال مرداس بن عمرو الثقفي(١):

فـإن اللـــــه لم يُـــؤثـــرْ علينـــا
غـــــداة يجُزّيء الأرض اقتســـامـــا
عَـــرَفنـــا سَهْمَنـــا في الكـفِّ يهوي
كـــذا نـــوحٌ، وقسّمْنـــا السهـــامـــا
فلّما أنْ أبـــانَ لنـــا اصطفيْنـــا
سَنَـــامَ الأرضِ، إنّ لها سَنَـــامـــا
فـأنشأنـــا خضـــارم مُتجـــراتٍ
يكـــون نتـــاجُهـــا عنبـــاً تُـــؤامـــا

أجل! إذاً كانت هذه هي مكانة ثقيف بكل أبعادها، فلابد أن يتواءَم معها، ويتّسم بها:

ساداتها وأشرافها:

المقصود بهم أولئك ا لرجـال الذين اشتهروا في الجاهلية بالزعـامة، أو السيادة، أو غير ذلك من مظاهر العز والجاه والرياسة. ونذكر منهم على سبيل المثال، هؤلاء الثلاثة:

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١١. أما المرداس، فهو: شيء صُلبٌ يُدكُّ به.

١ - **عروة بن مسعود الثقفي** : كان كبير قومه، وسيد بـلادهم كلها، بما فيها الطائف وما حولها، وسائر القرى التي تمتـد جهة اليمن. وله شأن عظيم بين قبائل العرب. وقد تمنّت ثقيف لو نزل عليه القرآن، وانفرد بالنبوّة. وادّعت قريش أنه أحد الرجلين العظيمين في مكة والطائف، الذي يمكن أن يكون نداً، أو نظيراً للمصطفى ﷺ.

وقد جـاء قول الله تعـالى في القرآن الكريم على لسان المشركين: ﴿وقـالوا لولا نُـزّل هذا القرآن على رجـلٍ من القريتين عظيم﴾(١). ويقـول المفسرون(٢): يقصد المشركون بـذلك: الوليد بن المغيرة المخزومي عظيم مكة، وقد هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر.

أو أنهم يعنـون: عـروة بن مسعود الثقفي هـذا، وهـو عظيم «الطـائف» أو ربما عظيم القريتين وحـده. وقد حصل منه - بعـد حصار الطائف - أنْ وفـد على النبي ﷺ في المدينة المنورة، وأعلن إسـلامه، فكان بـذلك من السابقين من ثقيف إلى الإسـلام، وبعدئذ استأذن النبي عليه الصلاة والسـلام في العودة إلى قومه يدعوهم لـلإسلام، فخشي عليه النبي عنت أهل الطائف، وحـذّره أن يغتالوه، فعزم على الـذهاب معتمداً على شرف بيتـه فيهم، ورفعة شأنـه بينهم. وقـال للنبي: «أنـا أحبّ إليهم من أبكـار أولادهم، ولـو وجدوني نـائماً مـا أيقظوني»(٣)، فلما وصل عـروة إلى الطائف دعا قـومه إلى الإسلام، حتى إذا كـان الفجر، صعد إلى غرفة في أعلى بيتـه، ونادى من فوقها إلى الصلاة، والإيمان باللـه، فاجتمعوا عليه، ورموه بالنبال، فمات مغتبطاً باستشهاده في سبيل الله، وذلك في سنة ٩ هـ / ٦٣٠م(٤).

٢ - **عثمان بن عبدالله بن ربيعة الثقفي** : هو صاحب لـواء المشركين يوم حنين سنة ٨ هـ، وقُتل يومئذ كافراً(٥).

٣ - **غيـــلان بن سَلَمـــةَ الثقفي** : شاعر حكيم، وكان ذا رياسة في قومه، وانفرد في جاهليتـه بأن قسم أعماله وأشغالـه على الأيام، فكان لـه يوم يحكم فيه بين النـاس، ويوم

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٣١.

(٢) د. محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، المجلد الثالث، ط٢، بيروت، ١٩٨١م، ص١٥٦.

(٣) خير الدين الزركلي: الأعلام، ط٧، ج٤، دار العلم للملايين، بيروت، ص٢٢٧.

(٤) المصدر السابق نفسه: ج٤، ص٢٢٧.

(٥) جمهرة أنساب العرب: ج١، ص٢٦٦.

يُنشد فيه شعره، ويوم ينظر فيه إبله ويتفقدها، وهو من حكماء العرب الذين وفدوا على كسرى أنو شروان ملك الفرس، وقد أُعجب كسرى بحسن كلامه، ورجاحة عقله.

وقد أدرك غيلانُ الإسلام «يوم الطائف»، وعنده عشر نساء، فأمره النبي ﷺ بالاقتصار على أربع، فاختار أربعاً، وأبقاهن على ذمته. وقد توفي في الطائف سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤م (١).

النبي الكريم وقبيلة ثقيف:

نقطة البدء في هذا الموضوع: هجرة النبي ﷺ إلى الطائف: لما بدأ النبي الكريم يدعو قومه قريشاً إلى الإسلام، تألبوا عليه، وخاصموه، واستمروا في عنادهم له، ولجاجهم معه، وكان عمه أبو طالب (عبدمناف) بن عبدالمطلب ملاذاً له، وكانت قريش تحسب حساباً له. ولما مات أبو طالب، لم يجد النبي من يدفع خطر القوم عنه، وعند ذلك شعر أنه لم يعد يأمن على نفسه بين أهل مكة، فخرج ومعه مولاه زيد بن حارثة ليبحثا عن ملجأ عند «ثقيف» في الطائف.

دخل النبي محمد مدينة الطائف، ومكث فيها ما يقرب من شهر بدأت خلاله:

محاولة نشر الإسلام بين أهلها:

أراد النبي أن ينشر الإسلام بين أهل ثقيف الذين كانوا يتوجهون بعبادتهم إلى اللات، لكنهم خيّبوا ظنّه. فكان إذا وقف يدعو إلى الإسلام يضيع صوته بين ضجيجهم، ويرميه الصبيان بالحجارة، ويتصايحون عليه. واشتد اضطهاد أهل الطائف له، وما لبثوا أن أخرجوه منها بعد ان اجتمع الناس عليه، وألجأوه إلى حائط من حوائط الطائف، فجلس إلى الجدار، واتجه إلى الله قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس.. اللهم يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني؟ أم إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع»(٢)، فاستجاب الله هذا الدعاء الكريم.

وأخذ الإسلام يشق طريقه في تقدم ونجاح، فهاجر النبي إلى يثرب، ثم انتصر، وفتح مكة في رمضان سنة ٨ هـ / ٦٣٠م، وقضى على معقل الوثنية.

---

(١) الأعلام: ج٥، ص١٢٤.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، المجلد الأول، بيروت، ١٩٧٨م، ص٢١٠، وما بعدها.

ومما تجدر الإشـارة إليه، أن هذا الفتح المبين قـد أوجد صدعـاً كبيراً في كيان المشركين، ولذلك أخذت:

هوازن وثقيف في محاربة النبي:

بعد خمسـة عشر يومـاً من فتح مكة علـم النبي بقدوم هـاتين القبيلتين لقتال المسلمين، فكان أن تأهب الجيش الإسلامي، وسار إلى قتالهما في:

غزوة حنين:

في شهر شوال سنة ٨ هـ / ٦٣٠م، وهزمهما، وغنم المسلمون الغنائم، وانسحبت فلول القبيلتين إلى الطائف، واعتصمت بها. ولكن النبي صمّم على:

حصار الطائف:

في شهر ذي القعدة سنة ٨ هـ / ٦٣٠م، أي بعـد خمسة عشر يوماً من انتصار المسلمين في غزوة حنين السـابقة، توجـه النبي إلى الطائف، وهـدد أهلها، بحرق كـرومهم، وإتلاف بساتينهم، فعـزّ على ثقيف كرومهـا، ولكنها أبت الخضـوع والاستسلام(١)، وتحصنت، واحتاطت لنفسها غاية الاحتياط، فلم يكن إليهـا سبيل. وفي هذه الأثناء نزل إلى رسول الله ﷺ، رقيق من رقيق أهل الطـائف، منهم: أبـوبكـرة نُفيع بن مسروح مـولى رسول اللـه في جماعـة كثيرة منهم: الأزرق والـد نـافع بن الأزرق الخارجـي (زعيم الأزارقـة في العصر الأموي)، فعُتقوا بنزولهم إليه، ونصب الرسول الكريم منجنيقاً(٢) فأحرقها أهل الطائف، فقال رسول الله: لم نُؤذن بفتح الطائف، ثم انصرف عنها مضروباً عليها الحصار(٣).

وبعد أشهـر قليلة شعـرت ثقيف بشدة وطـأة هذا الحصار، ورأت أن تعتنـق الإسلام ديناً، فبعثت وفداً منها إلى الرسول يطلبون:

الصلح والدخول في الإسلام:

إثر عـودة الرسـول من غزوة تبوك في شهـر رمضان سنة ٩ هـ، تصالح هـؤلاء العصاة

---

(١) د. على حسن الخربوطلي: المختار الثقفي مرآة العصر الأموي، المؤسسة المصرية للتأليف، ص١٢.

(٢) المنجنيق: آلة من آلات الحصار تُرمى بها الحجارة.

(٣) معجم البلدان: المجلد الرابع، ص١٢.

الأكابر مع الرسول، وعرضـوا عليه إسلامهم، وشرطوا عليه أن يعفيهم من الصلاة، وأن يترك لهم معبودتهم «اللات» لا يهدمها، ثلاث سنين، فأبى الرسول إلا أن يدخلوا في الإسلام من غير قيد، ولا شرط. وبعد ذلك أسلمـوا، وأقرهم على ما في أيديهم من أمـوالهم وركازهم(١)، وهدم المغيرة بن شعبة الثقفي صنم اللات بأمر الرسول صلوات الله عليه(٢).

وهكذا دخلت ثقيف في الإسلام صلحاً.

دورها في عصر صدر الإسلام:

على الرغم من تأخـرّ ثقيف في اعتناق الإســلام ديناً، إلا أنها تعد من أصحّ قبـائل العرب إسلاماً، ومن أشدّهـا تحمساً له، واندفاعاً في سبيل نشره. ويمكن أن تـوصف بأنها علامة فارقة في سجل تاريخ عصر صدر الإسلام.

يقول المغيرة بن شعبة عن قومه بني ثقيف:

«فدخلوا الإسلام، فلا أعلم قوماً من العـرب بني أبٍ، ولا قبيلةً كانوا أصحّ إسلاماً، ولا أبعد أن يوجد فيهم غشٌّ لله ولكتابه منهم»(٣).

موقفها من الردّة:

لما توفي الـرسول محمـد ﷺ، وجاء أبوبكـر الصديق خليفـة للمسلمين من بعده، وذلك سنة ١١ هـ / ٦٣٢م، ارتدّ عدد كبير من قبـائل العرب عن الإسلام، بمعنى أنهم رجعوا إلى الكفر بعـد الإسلام، فمنعـوا الزكـاة، وبعضـهم امتنع عن الصلاة، وبعضـهم الآخـر أدّعى النبوة، فما كان من هـذا الخليفة الحازم إلا أن جهّز الجيوش، وأمر بانطلاقهـا نحو معاقل الكفر والردة للقضاء عليها، ليبقى الإسلام دين الأمة كما أراده الله إلى يوم الحساب.

والآن يحق لنـا أن نسأل: أين ثقيف؟ ومـا مـوقفها مـن هذه الـردة وهـؤلاء المارقين؟

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٢.

والركاز: كل ما تحت الأرض من المعادن بحالتها الطبيعية، أو الكنز.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ج٢، ص٤٩١.

(٣) الطبقات الكبرى: المجلد الأول، ص٣١٤.

والجواب: إن ثقيفاً قد زادها هذا الأمر تمسّكاً بالإسلام، والطاعة له، والاعتزاز به، وبفضل إيمانها السليم اتخذت موقفاً ممتازاً يعلو فوق عصبيات القبائل، حيث انضم الثقفيون من أول الأمر، خلافاً للأنصار، انضماماً نهائياً إلى قريش صاحبة السيادة(١).

مشاهير رجالها في هذا العصر:

المراد بالمشاهير من رجال ثقيف في عصر صدر الإسلام أولئك الذين نالوا شهرة من جراء ما قاموا به من أعمال مميزة في الحياة الاجتماعية، أو في المناصب الرسمية. ونذكر أربعةً منهم على سبيل التوضيح:

١ - الحارث بن كَلَدَة الثقفي :

طبيب عربي، معاصر للنبي صلى الله عليه وسلم، كان مقيماً بالطائف، رحل إلى فارس، ودرس بها الطب في جند يسابور فبرع فيه، ثم عاد إلى الطائف، ويُقال له: «طبيب العرب» وكان الرسول يشيد بتشخيصه وعلاجه. وله كتاب «محاورة في الطب» بينه وبين كسرى أنوشروان. توفي سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م(٢).

٢ - عثمان بن أبي العاصي بن بشر الثقفي:

وال وقائد، وهو من خيار الصحابة، ولاه رسول الله ﷺ مدينة الطائف. ثم عندما تولى عمر بنُ الخطاب مقاليد الخلافة ولّى عثمان هذا البحرين وعمان سنة ١٥ هـ، فسار إلى عمان، وقام بغزو بلاد فارس وثلاثة من ثغور الهند، وله فتوح(٣).

٣ - أبو محجن بن حبيب الثقفي:

فارس وشاعر مخضرم، وله ديوان. نظم في أغراض المدح والفخر والحماسة والغزل، واشتهر بوصف الخمرة، حيث يقول في خمرياته:

إذا متُّ فادفنّي إلى جنب كرمةٍ
تُروّي عظامي في التراب عروقُها

(١) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي: ص٢٤.

(٢) الموسوعة العربية الميسرة: المجلد الأول، ص٥٨١، وص٦٨٥.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ج١، ص٢٦٦.

ولاتـــــدفنّـي بــــالفــــلاة، فإنّـي

أخـــاف إذا مـــا مِـتُّ أن لا أذوقهـــا

وقد أُقيم عليه الحد في الخمـرة، وتاب، وأبلى في «القادسية» بلاءً حسناً مشهـوداً له فيه. ومات بأرمينية، وقيل في أذربيجان أو جرجان(١).

٤ - أبو عبيد بن مسعود الثقفي:

اعتنق الإسلام، وأخلص لـه. وهو أحد رموز المجـاهدين في سبيل نشر الإسلام خـارج شبه جزيرة العرب. وآية ذلك أنه عندمـا ندب عمر رضي الله عنه المسلمين إلى الجهاد في أرض العراق أمّره على المجاهدين، حيث كان أول من لبى النداء. وتوجـه هذا القائد المجاهد إلى العراق لمحاربة الفرس، فحقق فوزاً، واستشهد «يوم الجسر» سنة ١٣ هـ / ٦٣٤م(٢). ومن أبنائه:

المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي سيكون له دور كبير في الاتجاهات السياسية في الدولة الأموية سنعرض له فيما بعد.

نفوذها السياسي في العصر الأموي:

بدأ العصر الأمـوي منذ عام ٤١ هـ (وهـو عام الجماعة)، وامتد إلى عـام ١٣٢ هـ. وفي أوائل هـذا العصر انحـاز الثقفيون من النـاحيـة السيـاسية إلى الأمـويين، ووقفـوا معهم، وأيدوهم في الخلافة، ودخلـوا في طاعتهم، باستثناء واحد من أبطـالهم ألا وهو: المختار بن عبيد الثقفي الـذي قلب ظهر المجن لبني أمية، ونبـذ الطاعة لهم، واتخذ موقفـاً آخر سيأتي الحديث عنه بعد قليل، عندما نتعرض إلى رجالات قبيلة ثقيف في هذا العصر.

مظاهر نفوذها :

على الرغم من أن قبيلـة ثقيف ترتبط بمدينة الطـائف، إلا أن رجالاتها ارتبطوا في عصر الخلفاء الراشـدين، وعصر بني أمية، بالعراق. فقد شهـد هذا البلد أمجاد الثقفيين، وأصبح تاريخه هو في الحقيقة تاريخ هؤلاء الثقفيين(٣).

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٦٩، ود. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي: ج١، ط٥، ص٢٩٣.

(٢) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، المجلد الثالث، ط٤، دمشق، ١٩٨٥م، ص١٦٩.

(٣) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي: ص٢٤.

فتاريخ العـراق منذ أواخر عهد الخلفـاء الراشدين، وطوال العصر الأمـوي مليء بالفتن والأحداث والثورات التي نجمت عن نشـوء الأحزاب السياسية المتصـارعة فيما بينها على الخلافـة. فهناك حـزب الخوارج، وحزب الشيعـة، وحزب عبـدالله بن الـزبير، ثم الحزب الأموي، وبيده مقاليد الحكم والسلطان.

ورجـالات ثقيف وقفوا مع الحزب الأمـوي - عدا المختـار الثقفي - فكان لهم نفـوذ في تعيين الولاة والعمال في بعض الأمصار، وفي اختيار قادة الجيوش لتوسيع رقعة الفتوحات الإسلامية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ارتباط الثقفيين بالأمويين قد ارتقى إلى درجة المصاهرة بينهما. فهذا الخليفـة الأموي الـوليد بن يـزيد بن عبـدالملك أمه ثقفيـة، هي: أم الحجاج بنت محمـد بن يوسف، أخي الحجاج بن يوسف الثقفي. وقد افتخر الوليد بأخواله بني ثقيف، حيث قال:

أنــــا ابـن عظيم القــــريتين، وعــــزُّهـــا

ثقيفٌ وفهــــرٌ والعصـــــاةُ الأكـــابـــرُ (١)

كبار رجالاتها:

إنهم القادة والـولاة الذين امتـازوا بحدة الذكـاء، وشدة الحزم، وبـراعة الـدهاء، ومن خلال شخصياتهم الفذة نلمح الخارطة السياسية للعصر الأموي. وهم:

١ - المغيرة بن شعبة الثقفي :

كان ممن كتب للنبي ﷺ: فيما يعرض من حوائجـه(٢). وهو صـحابي، ومن أهل «بيعة الرضـوان»(٣). ولاه عمر بن الخطاب مـدينة الكـوفة سنة ٢٢ هـــ / ٦٤٢م، وبقي والياً

(١) تاريخ الأدب العربي، ج١، ط٥، بيروت، ١٩٨٤، ص٦٩٠.

(٢) د. شاكر مصطفى: موسوعة دول العالم الإسلامي، ج١، ط١، بيروت، ١٩٩٣م، ص٢٦.

(٣) بيعة الرضوان: سنة ٦ هـ عندمـا بلغ النبي ﷺ الحديبية، دعا المسلمين على البيعة على أن يدخلوا مكة حربـاً، وبايعـوه على الموت، وكانت البيعة تحت شجـرة سَمُرَة بالحديبيـة نفسها. وقـد سميت «بيعة الرضوان». وقد جاء ذكرها في القـرآن الكريم: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فَعَلِمَ ما في قلوبهم فأنـزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾. سورة الفتـح: الآية١٨. باختصار عن صفوة التفاسير، المجلد الثالث، ص٢٢٣.

عليها حتى عـزله عثمان بن عفـان عنها. ثم جاء بـه معاوية واليـاً على العراق مـرة أخرى، ومات في الكوفة سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠م.

وهو من دهـاة العرب، حيث قيل: «الدهـاة أربعة: معاويـة للروية، وعمـرو بن العاص للبديهة، والمغيرة للمعضلات، وزياد (ابن أبيـه) لكل صغيرة وكبيرة»(١). ويقال له أيضاً: «مغيرة الرأي».

ومن أخباره: أنه عندما قدم رجال من الكـوفة على الخليفة عمر بن الخطاب يشكون إليه سعد بن أبي وقـاص (هذا التقي) الذي اتهمـوه بالضعف، فتعجب عمر من قـولهم، وكان المغيرة حاضراً، فاستشاره عمر بهذا الأمر، فرد المغيرة بذكاء قائلاً: عليك تُقاه، وله ضعفه. فهم يحتاجون إلى قوي فاجر لك تقاه، وعليه فجوره. فقال له عمر: إذهب إليهم فأنت القوي الفاجر(٢).

وللمغيرة رأي في حب الـولاية وكـراهيتها، فقد قـال: «أُحبُّ الإمـارة لثلاث، وأهجـرها لثلاث: أحبها لرفع الأولياء، ووضع الأعداء، واسترخاص الأشياء. وأكرهها: لروعة البريد، وموت العزل، وشماتة العدو»(٣).

٢ - المختار بن أبي عبيد الثقفي:

هو المختار بـن أبي عبيد بن مسعود الثقفي. وأبوه أبـو عبيد (ذكرناه ســابقاً) أول قائد مسلم يتجه إلى العراق.

ولد المختار في السنة الأولى للهجرة في الطائف، ثم انتقل مع أبيه أيام عمر بن الخطاب إلى المدينة المنورة، وبقي فيها. ولما تولى علي بن أبي طـالب رضي الله عنه زمام الخلافة، واتخذ الكوفـة عاصمـة له، وقف المختار بجـانبه، وصـار ينتصر له. وبعـد استشهاد علي، سكن المختـار البصرة، وانقطع إلى آل علي، وازداد تحمسـاً لمنـاصرة دعـوتهم، وفتح بـاب داره لاستقبـال مسلم بن عقيل بن أبي طـالب مبعوث الحسين بن علي إلى العـراق، فتصبح داره

(١) العقد الفريد: ج١، ص٧٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٧٤.

(٣) المصدر السابق نفسه: ج٥، ص٢٦٥.

ملتقى الشيعة في عداوة صريحة للأمويين، فسجنه عبيدالله بن زياد والي العراق يومذاك، وضربه على عينه. ثم أُخرج من السجن، فذهب إلى الحجاز وأقام في الطائف. ولما أعلن عبدالله بن الزبير نفسه خليفة في الحجاز سنة ٦٤ هـ بايعه المختار، وصار من قادته. ثم أرسله ابن الزبير إلى العراق للدعوة له، فانتقل إلى الكوفة، وبدأ يدعو بإمامة المهدي يعني به محمد بن الحنفية، وهو أخو الحسين بن علي وولي دمه. ولما قوي أمر المختار انتزع الكوفة من عبدالله بن مطيع والي ابن الزبير، واستولى على الموصل، وتتبع قتلة الحسين في كربلاء، وقتل أمير جيش عبدالملك بن مروان وهو عبيدالله بن زياد. وبعد ذلك انقلب على الشيعة، وقتل كثيراً منهم.

وشاعت عن المختار أخبار أنه ادعى النبوة، وأن جبريل ينزل عليه بالوحي من الله، وتحدث الناس بذلك. ثم قتله مصعب ابن الزبير سنة ٦٧ هـ(١).

٣ - الحجاج بن يوسف الثقفي :

هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك ابن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف. وأمه: هي الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي. ولد في الطائف سنة ٤١ هـ.

واسمه الأصلي «كُليب» كما يقول ابن عبد ربه(٢)، أو «قُثَم» حسبما يذكر المؤرخ الدكتور شاكر مصطفى(٣) نقلاً عن ابن الأثير. و«قثم» اسم معدول عن قاثم، ومعناه: المُعطي، والقُثُمُ: الأسخياء. والقَثُوم: الجامع للخير أو الشر(٤)، فالخير محمود، والشر مذموم، وأول من سُمي باسم «قثم»: هو قثم بن العباس بن عبدالمطلب، كما ورد في كتب السير والطبقات والأنساب والتاريخ.

كان الحجاج في أول أمره يعلم الصبيان في الطائف، وأبوه يوسف معلم أيضاً، ثم انتقل الحجاج إلى دمشق الشام، والتحق بشرطة روح بن زنباع نائب الخليفة عبدالملك بن مروان،

---

(١) المصدر السابق نفسه: ج٥، ص١٥٣، والتاريخ الإسلامي: المجلد الرابع، ص١٧٢.

(٢) في كتابه: العقد الفريد: ج٥، ص٢٧٥.

(٣) في كتابه: موسوعة دول العالم الإسلامي، ج١، ط١، بيروت، ١٩٩٣م، ص١٠٣.

(٤) معجم المنجد في اللغة والأعلام: مادة «قثم».

ومن هنا بدأ نجمه في الظهور، فصار أميراً لعسكر عبدالملك، فأمره بقتال عبدالله بن الزبير، فقتله في مكة سنة ٧٣ هـ. فجعله عبدالملك والياً على الحجاز بمدنه الثلاث: مكة والمدينة والطائف.

وفي سنة ٧٥ هـ نقله عبدالملك والياً على العراق الثائر على بني أمية. فقضى الحجاج على الفتن، واطفأ نيران الخلاف، وأخمد الثورات. وكان سبيله إلى ذلك هذه القسوة البالغة في إراقة الدماء، وفي الضرب على الأيدي دونما هوادة، وفي اخذ البرىء بجريرة المسيء، حتى سكنت له وللأمويين ثوائر الفتن، وخمدت ريح الثورات التي كانت تهدد الدولة بالتصدع والانقسام، أو تدفع بها نحو الضمور والانحلال، فكان سيف بني مروان، وصار أميراً على العراق كله وسائر المشرق، وبنى مدينة «واسط» بين الكوفة والبصرة سنة ٨٤ هـ، فأصبحت قاعدة العراق.

وبلغ من أمر الحجاج أنه كان يرسل العمال والولاة والنواب عنه إلى الولايات والأمصار، ومنهم: محمد بن يوسف الثقفي (أخو الحجاج) الذي جعله والياً على اليمن، وظل فيها إلى أن مات، وكان والياً ظالماً غشوماً، وقتيبة بن مسلم الباهلي حيث أرسله عاملاً على خراسان، ومحمد بن القاسم الثقفي والياً وأميراً على السند.

ونفهم من كل ما تقدم أن الحجاج لم يكن قائداً سهل المراس، ولا والياً بعيداً عن الطموح، حيث اكتملت له السيادة على الجناح الشرقي من الدولة الأموية لمدة عشرين عاماً، أي حتى وفاته سنة ٩٥ هـ(١).

لقد كثرت أقوال المؤرخين والباحثين حول الحجاج وحياته السياسية. فمنهم من يؤيده، ومنهم من يعارضه، ومنهم من ينتحل له الأعذار في سلوكه وتصرفه، كل ذلك في ضوء ما طرأ على العراق من أحداث ونزاعات، وما اعتمل فيه من فتن وثورات.

وللتوفيق، أو الجمع بين كل هذه الآراء، التي لكل فريق مطلق الحق في وجهة نظره، وحتى لا تضيع حسنات الرجل في بحر سيئاته كما يقولون، فإن الأمر يقتضي منا التجرد، والأخذ بموضوعية البحث، والأمانة العلمية.

ولنبدأ أولاً بقول الحجاج عن نفسه حينما يصف سيرته للخليفة الوليد بن عبدالملك،

---

(١) لمزيد من التفصيل يمكن العودة إلى العقد الفريد، ج٥، حيث فيه باب مستقل عن الحجاج وأخباره.

قائلاً(١): إني أيقظت رأيي، وأعنت هـواي، فأدنيت السيد المطاع في قومـه، ووليت المجرَّب الحازم في أمره، وقلّـدت الخراج الموفر لأمانتـه، وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً أعطيه حظاً من لطيف عنايتي ونظري، وصرفت السيف إلى النَّطِف(٢) المسيء، والثواب إلى المحسن البريء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسّك المحسن بحظه من الثواب.

ومن ثم إذا كـان لكل من اسمـه نصيب كما يقولـون، فإن الحجـاج على شـاكلة اسمـه الأصلي «قثم» قـد جمع بين الخير والشر معاً هذه المرة. فلـذلك سجّل في حيـاته السيـاسية نقطتين بارزتين: الأولى منهما إيجابية وتحسب له، والأخرى سلبية وتحسب عليه.

فالنقطـة الإيجابية : أنـه دعا إلى الـوحدة، فجمع النـاس في ولايات الحجـاز واليمن والعراق وسائر المشرق تحت راية واحدة للخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، ودمشق دار الخلافـة، ونجح في ذلك. فكـان بهذا العمل السليم قـد أنقـذ الـدولـة من مخاطـر التمـزق والانقسـام وفقدان الهيبـة، وخلصها من شرور الفـوضى والفتن والاضطرابـات، لتبقى الأمة الإسلامية موحدة الكلمة وعلى قلب رجل واحد، وتنضوي تحت ظلال خلافة مركزية واحدة.

ومن نتيجة عملـه هذا أن كانت لـه اليد الطولى في تشـجيع حركـة الفتوحات الإسـلامية جهة الشرق حتى حدود الصين، مـوازاة لحركة الفتوحات الإسلاميـة الأخرى في الأندلس حتى جبال البرات «الممرات» الفـاصلة بين إسبانيا وفرنسا. وكـان كل هذا في عصر الخليفة الوليد بن عبدالملك عصر الفتوحات الواسعة.

وفي هذا المنظـار يكون الحجـاج بن يوسـف الثقفي والياً يقظـاً سـاهـراً، وقائداً جـريئاً حازماً، والدولة تحتاج إلى ذلك .

أما النقطة السلبية: فهي أن الحجاج قد قسا على النـاس، وأهان الأمة، وأذل كثيراً من رجـالها وعلمائها، وقتل أبـرز أبطـالها حتى يبسط سلطة الأمـويين على سـائر الولايـات والأقاليم، مع كثرة الخلافات، وتعدد الفرق والأحزاب والأهواء، وبالغ في ذلك، فكان في هذا

(١) المصدر السابق نفسه، ج١، ص٢٢، وص٢٣.

(٢) النَّطِف (بفتح وكسر): المتّهم المريب.

الموقف غير السليم قد أوجد جروحاً تنز، ونفوساً تتململ، وأناساً لا يأمنون على أرواحهم في بعض الأحيان.

وقد بلغ الأمر بالحجاج إلى حد الاستهانة بمن بقي من الصحابة الذين امتدت بهم الحياة إلى عصر عبدالملك بن مروان «٦٥ – ٨٦ هـ»، ولم يتورع عن إهانتهم وقتل أولادهم، مثلما حصل في هذا العمل مع الصحابي الجليل أنس بن مالك الأنصاري (ت٩٣ هـ) حيث أهانه الحجاج، وقتل ولده عبدالله بن أنس دونما رحمة. وغنّي عن التعريف أن مالك بن أنس هذا هو خادم رسول الله ﷺ.

كما أنه (أي الحجاج) قد بدر منه الاستخفاف، بل الإهانة والإذلال للتابعي الكبير الإمام الحسن البصري (٢١ – ١١٠ هـ). ولذا يُقال(١): إن الحسن البصري سجد شكراً لله حين أُخبر بموت الحجاج سنة ٩٥ هـ.

ومن هذا المنظور يبدو الحجاج والياً عنيفاً قاسياً، وقائداً جباراً ظالماً، والأمة تكره ذلك.

وبعد كل هذا الذي تقدم، لابد أن نسأل: هل يقف تاريخ الحجاج عند حد هذا الجانب السياسي المزدوج في شخصيته؟ أم هناك جوانب أخرى؟

والجواب إن هذه الازدواجية السياسية تقابلها فصاحة وبلاغة في الأدب، حيث أنه من الخطباء المشهورين. وقد صوّر أدبه مالك بن دينار فقال عنه: ما رأيت أحداً أبين من الحجاج، إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه على أهل العراق، وإساءتهم له وصفحه عنهم، حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين. وهذا دليل شدة بيانه وقدرته في تقليب الكلام(٢).

ومما تجدر الإشارة إليه أن كل هذه الجوانب في شخصية الحجاج التي سبق الإسهاب فيها، لسوف نحتاج إليها عندما يأتي الحديث عن شخصية محمد بن القاسم الثقفي الذي هو موضوع هذا البحث كله.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: المجلد الرابع، بيروت، ١٩٦٥م، ص٢٨٥. ود. حسن إبراهيم الحاج حسن: أدب العرب في عصر صدر الإسلام، الجامعة المفتوحة، ١٩٩٣م، ص٢٧٠.

(٢) أدب العرب في عصر صدر الإسلام: ص٢٧٠.

الفروع الثقفية في الأمصار الإسلامية:

عندما انطلقت الجيوش الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين لفتح العراق وبلاد الشام، صاحب هذا الفتح نزوح أعداد كثيرة من قبائل شبه الجزيرة العربية: إما بسبب الانضمام إلى هذه الجيوش الزاحفة للجهاد في سبيل الله، وإما بدافع الرغبة للسكنى والاستقرار في هذه البيئات الجديدة التي أصبحت جزءاً من جسم الدولة الإسلامية الناشئة.

ومن القبائل التي رحل العديد من أبنائها قبيلة ثقيف، وذلك بناء على السببين المذكورين، وإن كان الأول منهما هو الأرجح، أو الأقوى، وانصبّ هذا الرحيل، أو النزوح على العراق، لأن عدداً من قادة الجيوش والمعارك، فضلاً عن بعض الولاة، كانوا من أبناء هذه القبيلة كما عرفنا ذلك سابقاً.

ومن البيئات التي سكنها الثقفيون:

١ - **العراق**: ومن مدنه التي كانوا فيها:

١ : ١- **البصرة** : وهي مدينة أنشئت على الجانب الغربي من شط العرب المتكوّن من إلتقاء نهري دجلة والفرات. أسسها عتبة بن غزوان المزني سنة ١٥ هـ في خلافة عمر بن الخطاب.

ومعنى «البصرة» لغةً: الأرض الغليظة، والطين العَلِكُ فيه حصىً وحجارة رخوة فيها بياض. وبها سميت البصرة(١).

وفي هذه المدينة: أعقاب من بني أبي العاصي بن بشر من نسل مالك بن حُطيط، ولهم شرف وعدد بها، ومن رجالهم: عثمان بن أبي العاصي (وقد ذكرناه سابقاً)، وإليه يُنسب «شط عثمان» بالبصرة(٢).

١ : ٢ - **الكوفة** : مدينة تقع على ساعد نهر الفرات، انشأها سعد بن أبي وقاص بعد معركة القادسية، قرب الحيرة سنة ١٧ هـ. أي بعد تأسيس البصرة بعامين.

---

(١) معجم المنجد في اللغة والأعلام: مادة «بصر».

(٢) جمهرة أنساب العرب: ج١، ص٢٦٦.

ومعنى «الكوفة» في اللغة: الـرملة الحمراء المستديرة(١)، أما الـرملة البيضاء فهو اسم لمدينة أسسهـا الخليفة سليمان بن عبـدالملك في فلسطين، وصـارت تُعرف فيما بعد بـاسم مدينة الرملة فقط.

وقـد سكن الكوفـة الولاة الثقفيـون الذين كـانت لهم مقاليـد الإدارة فيها، من أمثـال: عبدالرحمن بن عبدالله بن عثمان، والمغيرة بن شعبة، بالإضافة إلى عبدالله بن أبي عقيل بن مسعود الذي كان له قدر في تلك المدينة(٢).

١ : ٣ - **واسط** : وهي مدينة تقع في الوسط بين الكـوفة والبصرة. اختطّها الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٨٤ هـ، لتكون قاعدة العراق ومركز الإمارة.

وقد استـوطنها بنو عقيل بن مسعـود بن عامر بن معتب من نسل سعـد بن عوف(٣)، ومن أعقابهم الحجاج بن يوسف الثقفي نفسه.

٢ - **الشام** : ومن المدن الشامية التي سكنها بنو ثقيف:

٢ : ١ - **دمشق**: حاضرة ولاية الشام في عصر الراشدين، ثم عاصمة الخلافة الأموية فيما بعد.

ومعنى «دمشق» في التعريف اللغوي: المدينة التي أسرعوا في بنـائها، وزيّنوها(٤)، وقد بناها الآراميون سنة ٩٤٠ ق. م، وهي تعد من أقدم المدن في العالم غير المسوّرة.

وأقـام فيها عَقِبُ الـوالي عبدالـرحمن بن عبـدالله بن عثمان صـاحب البصرة (ذكرنـاه سابقاً)، وسكنها أيضاً عقب الحجاج بن يوسف(٥).

٣ - **الأندلس** : فقد ذهب إلى تلك البلاد:

الحُرُّ بن عبدالـرحمن بن عبداللـه بن عثمان، حيث أرسله الخليفـة سليمان بن عبدالملك

---

(١) معجم المنجد في اللغة والأعلام: مادة «كَوَفَ».

(٢) جمهرة أنساب العرب: ج١، ص٢٦٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٦٦. ومعجم البلدان: ج٥، ص٣٤٧.

(٤) معجم المنجد في اللغة والأعلام: مادة «دَمْشَقَ».

(٥) جمهرة أنساب العرب: ج١، ص٢٦٧.

والياً على الأنـدلس (من ٩٧ – ٩٩ هـ) وهو ثالث ولاة الأنـدلس على الترتيب. وإليه يُنسب «بلاط الحُرّ»(١) بشرقي قرطبة، ثم رحل إلى الأندلـس واحد من حفدة الحجاج بن يوسف، هو عبدالله بن محمد بن الحجاج، ومن ذريته هناك، وعلى وجه الخصوص في مدينة «باجة» بالتحديد: بنو مُنذر بن الحارث بن عيشـون بن العلاء بن المعلا بن العجلان بن عبدالله بن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي(٢).

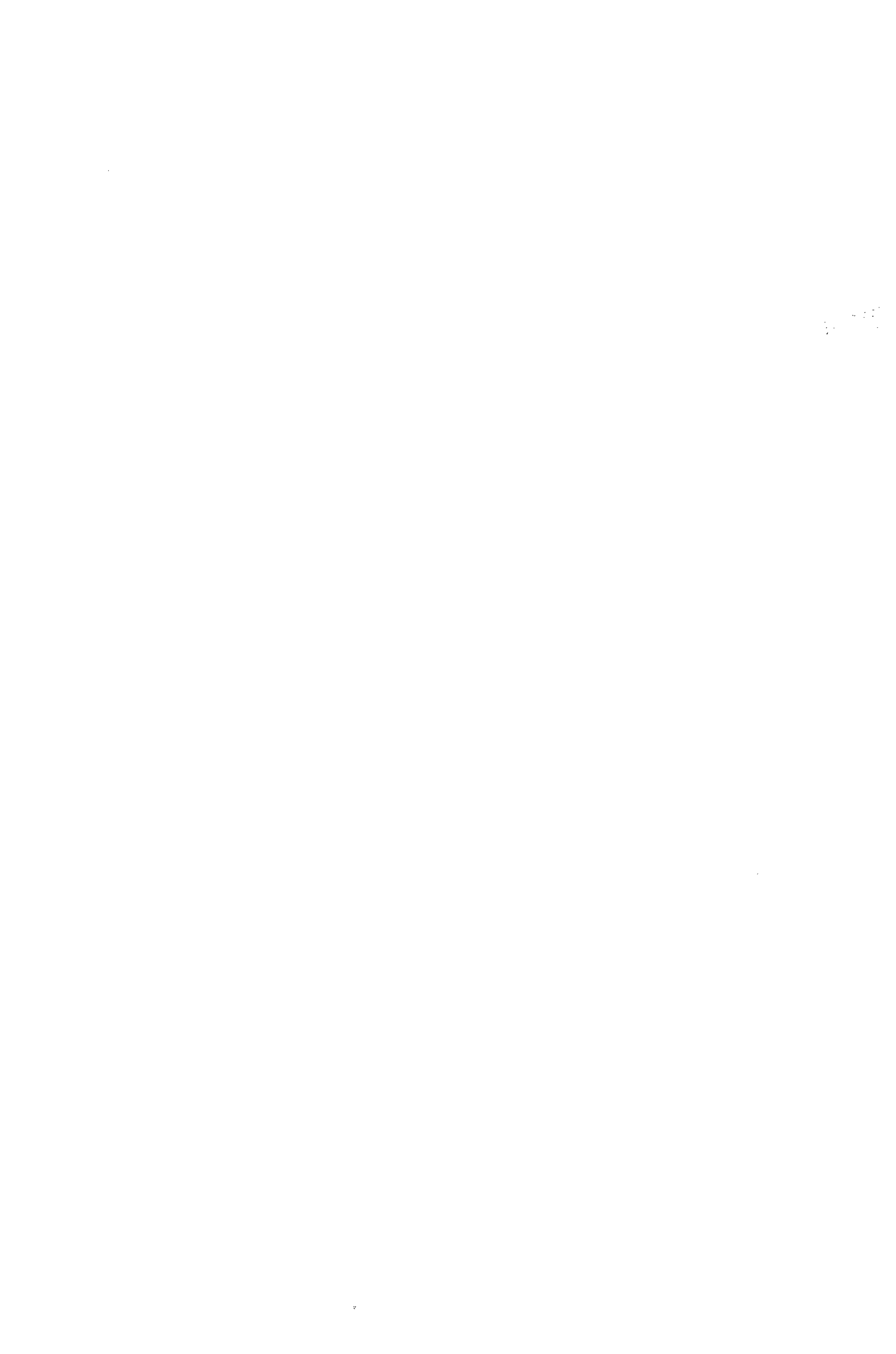
* * *

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٦٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٦٦.

الفصل الثاني

ترجمة حياته



الفصل الثاني
ترجمة حياته (٧٢ - ٩٨ هـ)

لقد ضنّ علينا المؤرخون بذكر ترجمة وافية عن هذا القائد البطل محمد بن القاسم الثقفي. ولم يجُدْ عليه التاريخ إلا بنتف قليلة الأخبار حول مولده ونشأته، وهذه الأخبار جاءت مبعثرة هنا وهناك، ضمن الحديث عن فتوحاته الواسعة.

اسمه : (لقد ورد سابقاً، ولكن نذكره هنا للضرورة):

هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن مُعتِّب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف.

وباختصار فهو: محمد بن القاسم الثقفي.

مولده:

من بين مصادر هذا البحث ومراجعه، تنفرد ثلاثة منها في ذكر ولادته، مع عدم الاتفاق فيما بينها عليها.

فهذا الأديب محمد عالم الأفغاني، في بحث ضاف له عن ابن القاسم هذا، نشره في رمضان سنة ١٣٥٨ هـ / أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٣٩م، يقول: «يقرب مولد محمد بن القاسم من سنة اثنتين وستين بعد الهجرة»(١).

ومن المحتمل جداً أن يكون هذا الأديب أول الباحثين في العصر الحديث الذين تناولوا سيرة محمد بن القاسم الثقفي.

وذاك المؤرخ العلامة الشاعر خير الدين الزِّركلي، لم يُترجم لابن القاسم بحرف في موسوعته الشهيرة «الأعلام» حين صدرت طبعتها الأولى في سنة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٧م، وهي الطبعة التي ظلت متداولة بين أهل العلم والأدب والمعرفة على مدى ثلاثين عاماً من

---

(١) مجلة «المنهل» مجلة تخدم الأدب والثقافة والعلم. لمنشئها: عبدالقدوس الأنصاري. المدينة المنورة. السنة الثالثة، الجزء العاشر، المجلد الثالث، ص٢٨.

تاريخ صدورها. غير أنه استدرك هذا الأمر، فترجم له في الطبعات الأخرى اللاحقة: الثانية في سنة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧م، والثالثة في سنة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٨م، والرابعة في سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م (والتي تم الاعتماد عليها في هذا البحث)، حيث ذكر فيها «أن مولد ابن القاسم كان في سنة ٦٢ هـ»(١).

والزركلي بهذه الترجمة منذ الطبعة الثانية، قد أسقط ما أخذه عليه محمد عالم الأفغاني الذي كان له السبق على الزركلي بما يكاد يقرب من عشرين عاماً في هذا المجال، وان اتفقا على سنة ولادة ابن القاسم في كلا الحالين من قبيل الاستنتاج.

وذلك الأديب الكاتب محمد عبدالغني حسن، الذي قد يكون أول من وضع كتاباً عن تاريخ محمد بن القاسم بعنوان «بطل السند»(٢)، حيث يقول فيه: «إن ولادة محمد بن القاسم الثقفي كانت في سنة ٧٢ هـ».

وهو في هذه الناحية قد اختلف مع سابقيه، وافترق عنهما، إلا أنه على ما يبدو، وهو الأرجح والأصوب في ذلك، استناداً إلى ما يلي:

١ - أجمع المؤرخون القدامى من أمثال: البلاذري في «فتوح البلدان»، وابن الاثير في «الكامل في التاريخ»، وابن خلدون في «كتاب العبر»، عندما أرخوا جميعهم أحداث سنة ٨٩هـ، ذكروا أن محمد بن القاسم، قاد الجيوش في تلك السنة، بأمر من الحجاج بن يوسف، وسار لفتح بلاد السند، وكان عمره سبعة عشر عاماً.

٢ - إن الشاعر حمزة بن بيض الحنفي من بكر بن وائل (ت ١١٦ هـ) - وكان معاصراً لابن القاسم - قد أشار إليه بقوله:

ساس الرجال لسبع عشرة حَجّةً

يا قرب ذلك سؤدداً من مولدِ(٣)

---

(١) الاعلام : المجلد السادس، ص٣٣٣.

(٢) من سلسلة «إقرأ» رقم ١٤٢، ط١، دار المعارف بمصر. وقد اعتمدنا هنا الطبعة الثانية من هذا الكتاب، طبع دار المعارف بمصر ودار المعارف، لبنان، سنة ١٩٧٤م، (إصدار وزارة التعليم والتربية في الجمهورية العربية الليبية)، ص١١.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ص٤٢٨.

وإننا لو طرحنا، أو أنقصنا سبعة عشر عاماً من تسعة وثمانين عاماً، لكان الجواب اثنين وسبعين.

إذاً فمولد محمد بن القاسم قد كان في سنة ٧٢ هـ. ونرى أن نضع هذه الحقيقة في الحسبان.

أما مكان ولادته فهو مدينة الطائف، وفي دار جده، التي هي «بيت الأسرة» على وجه التحديد.

أسرته:

الجد الأول لهذا المولود الجديد هو «محمد بن الحكم»، وهو شيخ ذو مكانة رفيعة في بلده، وحين بُشرَّ محمد بغلام أسماه «القاسم». ولما بلغ القاسم مبلغ الرجال أراد أبوه أن يزوجه، لأنه كان متشوقاً إلى حفيد له يحمل اسمه، ويرى فيه استمرار الحياة في الحفدة والأبناء. وكان يضرع إلى الله أن يهب له ما يتوق إليه ويتمناه. ويدعو ويزيد في الدعاء والرجاء، فاستجاب الله دعوة الداعي، وما خيّب أمنية المتمني، ففرح الجدُّ بحفيده، والأبُ بولده، وحمل اسم جدّه «محمد».

أما أبوه : فهو «القاسم بن محمد بن الحكم». وقد صار والياً على البصرة من قبل ابن عمه الحجاج بن يوسف بن الحكم، وذلك سنة ٧٥ هـ.

وأما أمّه: فهي «نائلة»(١)، التي حملت به تسعة أشهر وقد كانت تعد شهور هذا الحمل بكل ساعاتها وأيامها انتظاراً لساعة الوضع. ثم حين جاءها المخاض كانت على حال من الصحة لا تطيق معها آلام الولادة وأوجاعها، فوضعت مولودها البكر.

طفولته :

نشأ هذا الطفل في الطائف نشأة عادية، حيث لم يصحب مولده، ولا شهور رضاعته مظهر ما يدعو إلى الغرابة، أو الاستهجان، ولم يكن فيها كذلك شيء يخالف ما اعتاد عليه الناس، وألفوه في شأن تربية أطفالهم، والعناية بهم، والحنو عليهم، لأنهم براعم الأمل، وزينة الحياة.

وهكذا عاش هذا الطفل السنوات الثلاث الأولى من عمره في الطائف. ولا نعرف عنه في

---

(١) بطل السند: ص١١.

هذه المرحلة الباكرة من حياته سوى أنه كان يلعب في فناء بيت الأسرة، وإذا خرج منه أخذ يدرج في طريق حارته الذي يوصله إلى بعض أترابه، أو يؤدي به إلى أحد بيوت جيرانه، أو ربما انحرف به المسير، ليدخل حديقة مجاورة، أو يمر على بستان قريب تهفو نفسه إلى قطف بعضٍ من ثماره. وبعد ذلك يقفل عائداً إلى بيته أو داره.

انتقاله إلى العراق:

عندما عُينّ أبوه والياً على البصرة، كما سبق القول، انتقل الطفل مع أبيه وأمه إلى هذه البيئة الجديدة وأقام معهما في أحد أحياء البصرة الذي يسكنه عدد كثير من قومه بني عقيل من ثقيف. وقد مكث هناك نحو تسع سنوات، أي حتى بلغ الثانية عشرة من عمره أكثر أو أقل.

مشاهدة حوادث وسماع أخبار:

خلال سنوات إقامة هذا الغلام في البصرة، كان العراق يموج بالثورات على الأمويين، فالخوارج على مختلف فرقهم وجماعاتهم يقاتلون ويقتلون. فهذا شبيب بن يزيد الشيباني زعيم الحرورية ممعن في ثوراته، ولا تهدأ له حال. وذاك قطري بن الفجاءة زعيم الأزارقة(بعد نافع بن الأزرق) يقاتل ويحرز فوزاً، ويُسلّم عليه بالخلافة، واشتدت وطأته، وامتد نفوذه إلى خارج العراق إلى خراسان، فيوجّه إليه الحجاج جيشاً بقيادة المهلب بن أبي صفرة الذي أمعن في قتل الأزارقة حتى لحقت الهزيمة بزعيمهم قطري وقتله في طبرستان سنة ٧٨ هـ.

ومن قبيل الظن أو الاحتمال أن يكون هذا الطفل الصغير قد شاهد شيئاً من تلك الوقائع التي حصلت، أو تناهى إلى سمعه كثير، أو قليل من أخبار ما قد حدث.

ومن ناحية أخرى كانت تدخل إلى أذنيه أخبار عن حروب المسلمين مع الروم في جهة الشمال من الدولة الأموية، وعن مناوشاتهم مع الترك في الجهة الشرقية منها.

رؤية أشكال من الناس غير العرب:

بعد القضاء على الثورات، هدأت الأوضاع في العراق، وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي.

وتمر الأيام والشهور فإذا بالصبي محمد بن القاسم قد أكمل العاشرة من عمره، فهو والحالة هذه قد صار يحسن إدراك ما يحيط به، وما يدور حوله، مثلما يحسن استخدام ذاكرته لاختزان صور فيها لكل ما يشاهده من مناظر وأشكال. وهنا يطرأ شيء جديد كل الجدّة على هذا الصبي لم يره من قبل.

لقد شهد في البصرة أشكالاً من الناس غير العرب، وليسوا من العراق، إنهم من بلاد أخرى من الهند والسند، كانوا يفدون إلى البصرة للصفق(١) بالأسواق، أو عقد الصفقات التجارية إذا صح التعبير، والموافقة على إنفاذ عملية البيع والشراء. أو ربما جاءوا بغية البحث عن أسباب أخرى تعينهم على كسب الرزق، والعيش في الحياة.

وكان الصبي يحب الذهاب إلى الأسواق ليرى هؤلاء الناس. وأغلب الظن أنه سمع في هذه الأسواق قصصاً وحكايات من بلادهم فيها ما يدعو إلى العجب والغرابة(٢).

ولسوف يكون لهذا الجنس من البشر أثر بارز في حياة هذا الشاب محمد بن القاسم فاتح السند على نحو ما سنذكره في القسم الثاني من هذا البحث.

أول دروس الجندية:

آخر الثورات التي قامت في العراق ثورة عبدالرحمن بن الأشعث، وكان الحجاج قد بعثه أول الأمر والياً على سجستان، فلما استقر بها ثار على الحجاج سنة ٨١ هـ، ودعا إلى خلعه من إمارة العراق، وهزّ العصا في وجه الخلافة، وزحف إلى البصرة فانقاد أهلها إليه ومعهم آخرون من النواحي مما يلي الكوفة، فأرسل الحجاج فرقة لمقاتلة عدوه الجديد. ويلتحق الفتى محمد بن القاسم بتلك الفرقة.

وكانت الحرب تهدأ مرة بعض الوقت، ثم تنشب مرة أخرى، والأمور لم تحسم بعد،

---

(١) صَفَقَ (تثليث بالفتح) الشيء صفقاً: ضربه ضرباً يُسمع له صوت. وصفق البيع: أمضاه أو أنفذه. وكانت العرب إذا أرادوا إنفاذ البيع ضرب أحدهما يده على يد صاحبه، فقالوا صفق يده، أو على يده بالبيع، فوصفوا به البيع. وتصافق البائع والمشتري: أنجزا البيع.

والصفقة (بسكون الفاء): ضرب اليد عند البيع علامة إنفاذه. والصفقة أيضاً: العقد.

(٢) بطل السند: ص١١، وما بعدها.

فسار الحجاج على رأس جيش كبير من الكوفة إلى البصرة، وكـان محمد بن القاسم في عداد ذلك الجيش. وسار ابن الأشعث إلى الحجاج، فكانت حـروب طويلة، واتسعت ميادينها. ثم هزمه الحجـاج وقتله في واقعة دير الجماجم سنــة ٨٣ هــ. وبذلك زال آخر خصــوم الدولة الأموية، وعادت البلاد إلى الاستقرار.

وهنـا في ميـادين هـذه المعـارك والحروب تلقّـى الفتى محمـد بن القـاسم أول دروس الجنديـة، وتعلّم فنون القتـال، وخوض المعارك، وعـرف أساليب الكـر والفر، واشترك في الضرب والمبارزة.

هذه بداية دخول ابن القاسم في الحياة العسكرية والارتباط بها، والتفاعل معها، والسير في طريقها.

اهتمام بأخبار الفتوح:

في سنة ٨٤ هــ بنى الحجاج مدينة واسط، واتخذها مقراً له، فصارت قاعدة العراق كله. وكان قصده من بنائها أن ينزل بها جند الشام الذين كان يعتمد عليهم. وعمرت هذه المدينة الناشئة بسكانها الجدد الـذين قدموا إليها من هنا وهناك، ومنهم بنـو عقيل (قوم الحجاج وعترته)، وفيهم الجندي محمد بن القاسم.

وهنا في مدينة واسط عاش الجندي ثلاث سنوات (من ٨٤ – ٨٧ هـ). وخلال هذه المدة سارت الجيوش الإسلامية إلى الفتوح في البلاد المحيطـة بالدولة الأموية في الشمال والشرق والغرب وحققت فيها انتصارات عظيمة.

وصــارت أخبـار هـذه الفتـوح تصل إلى دار الإمـارة في واسط، مثلما تصل إلى أسماع الناس، وكـان الجندي النـاشيء محمد بن القـاسم يسمع تلك الأخبار أيضــاً، ويفتح أذنيه ليسمعها مرات ومرات طرباً لها، وإعجاباً بأبطالها.

إنه يسمع أن عبدالله بن عبدالملك بن مروان غـزا بلاد الروم، وافتتح مدينة «المصيصة» جهة أنطاكية، وبنى فيها حصناً. وتـدخل في أذنيه أخبار يزيد بن المهلب بن أبي صفرة فتح قلعة «نيـزك» أحسن قلاع «باذغيس» في إقليم مـا وراء نهر جيحون، (والذي يعـرف اليوم باسم تركستان).

كما يتناهى إلى سمعه أن حسان بن النعمان قد أعاد فتح إفريقية، وانتصر على زعيمة البربر التي تسمى «الكاهنة»، وانتهى الأمر بقتلها، وهزيمة جيشها.

فلا غرابة أن يستوعب هذا الفتى الناهض كل هذه الأخبار. إنه جندي يعي ما تدل عليه أخبار الفتوح من عظمة التضحية والجهاد، وروعة البطولة والفداء، وحلاوة النصر، أو شرف الاستشهاد، مما هوّن عليه أمر الحياة في نظر نفسه.

هذه هي الفتوح التي كان يتابع أخبارها، ويعيرها دائماً جلّ اهتمامه، ولا شيء آخر لديه يشغله عنها.

نظرة تأمل وتفكير:

لقد ارتسمت في ذاكرة هذا الفتى صور تلك الحروب التي وقعت بين المسلمين في العراق، وكان له سهم فيها على الرغم من حداثة سنه. وتجمَّعت في ذهنه أيضاً خلاصة الأخبار التي تحكي عن الفتوح وما صاحبها من تقدم جيوش المسلمين على جبهات القتال في بلاد الترك والروم والبربر. ثم أخذ يتأمل كل ما لديه من صور وأخبار، ويمعن النظر فيها، لعله يصل إلى شيء، وقد يتمكن من ذلك.

فها هو يدرك ما معنى الشجاعة في الإقدام، والصمود في الميدان، والبسالة في القتال. وهذه طموحات يسعى إليها، أو يريد الاقتراب منها. ولكن عزّ عليه ما كان قد جرى من حروب بين المسلمين، فنال بعضهم من بعض. فَلِمَ لا ترتفع الأمة عن نقيصة الحروب الداخلية، والثورات بين أبنائها؟ ولم لا تتوحد الكلمة في سبيل العقيدة، ويجتمع المسلمون على قلب واحد؟ ثم يتجهون نحو نشر الإسلام في بقاع هذه المعمورة، لإنقاذ شعوبها من الكفر والضلال، والأخذ بأيديهم للخلاص من العبودية، والنجاة من الظلم، والخروج من الظلام؟ وأغلب الظن أنه استمر في هذا التفكير.

تطلعه إلى الجهاد:

في سنة ٨٨ هـ، أكمل محمد بن القاسم السادسة عشرة من عمره. وبذلك يكون قد تخطى مرحلة الطفولة، ودخل في مرحلة الشباب. ومن المعروف أن الإنسان في سن الشباب

يكون زاخراً بـالحيوية، والحماسة والانـدفاع، وتنبت في نفسه طموحـات وآمال يتطلع إلى تحقيقها.

ومن هنا صار هذا الشاب ينظر إلى تحقيق ما في نفسه من طموح للخروج إلى الجهاد مع هذه الجيوش التي يـرسلها الحجاج للغزوات والفتوح في الجبهـة الشرقية من العراق. فهل يكون له نصيب بـالاشتراك في ساحات الجهاد هناك؟ أم سيكون من نصيبـه أن توكل إليه مسؤولية ما؟ فالجواب عن هذين السـؤالين رهن بقرار من الحجاج نفسه إذا عُرض الأمر عليه. فـالحجاج قـريب له، وبينهما دنـوٌ في النسب، فهو ابن عمه، أو بمعنـى أصح إن كلاً منهما في واقع الأمـر، ابن عم الآخـر، لأنهما يجتمعان في شخص الحكم، وهـو الجد الأول للحجاج، والثاني لابن القاسم.

فهذا: الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل.

وهذا : محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل.

وهكذا يكون كل واحد منهما ابن عم الآخر (على المقاربة).

ولايته على بلاد فارس:

كان الحجاج قد عرف شجاعة ابن القاسم في أثناء اصطحابه له في ميادين القتال، فأبدى حرصـه على رعايتـه، والاهتمام به، وجعلـه قريبـاً منه. ومن خـلال اللقاءات والأحـاديث بينهما كلما سنحت الفرص بذلك، رأى فيه الحجاج مـا يدل على جدارة في تحمل المسؤولية، والدراية بالأمور. فلذلك انتدبه قائداً لأحد الجيوش، وعقد له الولاية على بلاد فارس، وكان ذلك سنة ٨٨ هـ.

وانطلق هذا الـوالي الجديد حتى وصل إلى مـدينة شيراز، فتولى عمارتها في ستـة أشهر، وجعلها معسكـراً ومنزلاً للمسلمين ثـم زحف إلى مكران والـري، وخاض المعـارك، وكان النصر حليفاً له أينما سـار(١). فقال مفتخراً:

---

(١) القاضي أبـو المعالي المباركبـوري: العقد الثمين في فتوح الهنـد ومن ورد فيها من الصحابـة والتابعين، المطبعة الحميدية، بومباي – الهند ١٩٦٨م، ص١٨٠.

فلـــربَّ فتيـــةِ فـــارسٍ قـــد رُعتهـــا

وَلـــربَ قـــرنٍ قـــد تـــركتُ قتيـــلا (١)

وبقي البطل محمـد بن القـاسم والياً على فـارس إلى سنـة ٨٩ هـ. وفي تلك السنـة بلغ السابعة عشرة من عمره.

وهنا يبدأ تاريخ جديد في حياته وحيـاة المسلمين: تاريخ خالد في صفحات مشرقة بنور المجد، وضياء البطولة، إنه تاريخ افتتاح السند على يديه.

نهاية حياته:

مات فاتح السند محمد بن القاسم الثقفي سنة ٩٨ هـ، وهو ابن ستة وعشرين عاماً. أما كيف مات؟ فهذا سؤال سيأتي الجواب عنه في القسم الثاني من هذا البحث.

* * *

(١) القرن (بكسر القاف) للإنسان: مثله في الشجاعة والعلم وغير ذلك. والجمع أقران.

القسم الثاني

محمد بن القاسم الثقفي

فاتح السند

- السند قبل الفتح الإسلامي
- فتح السند وطبيعته
- محمد بن القاسم أميراً على السند



الفصـل الأول
السـند قبـل الفتـح الإسـلامي

كلمة «السند» Sind: السند اسم له ثلاثة تعريفات:

فالسنـد أولاً : هو نهر «الأنـدوس» Andus، أو «هنـدوس» Hindu، الـذي ينبع من هضبة التبت، ويجري في كشمير، وينعطف في جـريانه جنـوباً، مخترقاً البنجـاب، ثم يتجه نحو الجنوب الغربي عبر مساحـات كبيرة من الأراضي، ليصب في دلتا واسعة ببحر العرب، عند مدينة كراتشي الحالية.

وازدهرت على ضفافه حضـارة هندوسية متقدمة في القرن الثـالث قبل الميلاد. وقد غيرّ هذا النهر مجراه عدة مرات على مدار التاريخ. فاندثرت حضارة مدن قديمة كانت هناك(١).

والسند ثانياً : هو الجزء الشمالي الغربي من شبه القارة الهندية. ويتوسط هذا الجزء حوض نهر السنـد. وأكثره الآن يقع في جمهورية البـاكستان الإسلاميـة، التي نشأت عام ١٩٤٧م. ويعرف الآن باسم إقليم السند(٢).

والسند ثـالثاً : جنس من البشر يسكن تلك البلاد. ويقـال للواحد من أهلهـا «سِنْديّ» (بكسر أوله، وسكون ثانيه)، والجمع سِنْد، مثل: زِنجّي، وزَنْج(٣)، وهِنديّ وهِنْد. وأيَضاً: سِنْديّ وسُنُود، نحو: زِنجي وزُنوج، وهِندي وهُنود.

وقد قالوا في العصور الغابرة: إن السند، والهند، كانا أخوين من ولد بوقير بن يقطن بن حام بن نـوح عليه السلام(٤). ولهذا صـار من المعقول أن يكون هـذا هو الأصل في نشأة هذه الكلمة، من خلال المصادر التي اعتمدنا عليها.

---

(١) معجم المنجد في الأعلام: ص٣١٠، وص٥٩٩.

(٢) المعجم الوجيز : مادة «سَنَدَ».

(٣) معجم البلدان: المجلد الثالث، ص٢٦٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٢٦٧. والعقد الثمين: ص٣.

السند جغرافياً:

بلاد السند بتعريفها الواسع - كما ذكرنا - تقع بين بلاد الهند، وكرمان، وسجستان(١). ويحدها من الشمال سلسلة جبال هندكوش. ومن الغرب جبال سليمان، وبلاد إيران. ومن الشرق صحراء «ثار» Thar، أو صحراء الهند الكبرى. ومن الجنوب بحر العرب. فهي والحالة هذه تتخذ شكلاً مستطيلاً شاسع الطول. ومناخها يتراوح بين معتدل، وحار.

وتشتمل هذه البلاد على سهول زراعية واسعة، وفي غاية الخصوبة. ويرويها نهر السند نفسه. ومن أهم روافد هذا النهر:

أولاً : الأنهار الخمسة «بنج - آب» وهي: جهلام، وشناب، ورافي، وبيز، وستلج(٢).

وثانياً: نهر مهران الذي يأتي من الملتان.

وثالثاً: نهر كابل الذي يجتاز ممر خيبر في جبال سليمان(٣)، جهة «سرهد» التي تعني الحد، أو الحدود بين أفغانستان والسند. ومن نافلة القول إن «سرهد» اليوم هو أحد أقاليم الباكستان الأربعة. أما الثلاثة الأخرى فهي: البنجاب، والسند، وبلوشستان.

تاريخ السند:

دخلت بلاد السند في سجل التاريخ منذ القرن العاشر قبل الميلاد، وذلك عندما استقر «الآريون» Aryans على ضفاف نهر السند. والجنس الآري: جنس تجمعه بعض الخصائص السلالية، قسم منه في الهند وإيران، وقسم آخر في أوروبا(٤).

ويبدو أن هؤلاء السكان الأوائل لم تكن لهم حكومة مركزية واحدة تبسط نفوذها عليهم. ولهذا يمكن الظن أن كل ناحية استوطنوها، أو مدينة كبيرة عمروها كانت مستقلة عن الأخرى. وبقيت الحال هكذا عدة قرون.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٦٧.

(٢) المنجد في الأعلام: ص١٣٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٥٩٩.

(٤) المعجم الوجيز: مادة «آر».

ويشير التاريخ إلى أن بلاد السند كانت محط آمال الغزاة، وأنظار الفاتحين من أباطرة الممالك القوية في الشرق والغرب كلما سنحت لهم الفرص بالغزو والاجتياح والسيطرة. وقد يصل الأمر إلى حد الضم، وفرض اللغة والتقاليد.

ففي مطلع القرن الخامس قبل الميلاد أغار الإخمينيون الفرس على السند بقيادة ملكهم داريوس هستسابس Darius Hestaspes أي «داريوس الأول»، وفتحوها، وأخضعوها للحكم الفارسي(١).

وفي أواخر القرن الرابع قبل الميلاد غزا الإسكندر المقدوني الكبير «ذو القرنين» إمبراطورية الفرس، وهزم ملكها داريوس الثالث في معركة إيسوس على نهر الفرات سنة ٣٣٣ ق. م، ثم أخذ يتجه نحو الشرق، فاحتل بلاد السند سنة ٣٢٥ ق. م(٢). ولم يدم حكمه فيها سوى سنوات قليلة تعدّ على أصابع اليد الواحدة. ومات الإسكندر سنة ٣٢٢ ق. م، وتولى بعده أحد قواده، وهو سلوقس الأول، الذي أسس المملكة السلوقية الهلنستية في سنة ٣١٢ ق. م، والتي امتدت من الهندوس إلى البحر الأبيض المتوسط، واستمرت حتى سنة ٦٤ ق. م(٣).

وبعد رحيل الإسكندر مباشرة، وقيام المملكة السلوقية السابقة، نشأت أولى إمبراطورية هندية هي «إمبراطورية موريا» Muaryan Empire، نسبة إلى مؤسسها الأول «جُنْدرة كُبْتا مُوريا» Cupta Muaria، وذلك في سنة ٣٢٢ ق. م. وعُرفت سلالته بموريا، واستمرت في الحكم حتى سنة ١٨٥ ق. م(٤).

وقد استطاع هذا الإمبراطور أن يقهر سلوقس الأول، وذلك في سنة ٣٠٣ ق. م، وينتزع منه السند، لتصبح ولاية تخضع لهذه الإمبراطورية الناشئة، التي ضمت بلاد الهند بأسرها. وقد توفي موريا سنة ٢٩٨ ق. م.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: المجلد الثاني عشر، ص٢٥٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٦٧.

(٣) المنجد في الأعلام: ص٣٠٦.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٥٩٨.

ومن أشهر أباطرة سلالة موريا الإمبراطور «آشوكا» Ashuka، رسول البوذية (٢٧٣ – ٢٣٢ ق. م)، الذي سار على قدم وساق في نشر تعاليم البوذية في الهند(١).

وفي الزمن الذي نشأت فيه إمبراطورية موريا الآنفة الذكر، قامت أيضاً إمبراطورية «كُبْتا»(٢) Cupta، أقامها جُنْدرة كُبْتا، وعاشت هذه الإمبراطورية من سنة (٣٢٢ ق. م – ٤٩٥ ب. م). ويُعدّ عصرها أعظم حقبة في تاريخ الهند الثقافي. حيث ظهرت فيه مؤلفات شهيرة، من أعظمها «مهابهاراتا» Mahabharata، وقد كتبت في الأصل باللغة السنسكريتية، ولها مكانة مقدسة لأنها الملحمة القومية للهندوس(٣).

ونعود الآن إلى السند. فقد حصل بعد زوال إمبراطورية موريا الأولى، أن وقعت السند تحت حكم الدولة اليونانية في الشرق، أو بما يُعرف بإمبراطورية «إغريق بلخ» وهي: Backtras باليونانية، أو «باخترش» بالفارسية(٤)، وعاصمتها مدينة بلخ نفسها. وتكمن أهمية هذه المدينة في أنها تقع على ملتقى القوافل التجارية بين إيران والهند، وتُعقد فيها سوق مشهورة لتجارة الحرير بين الصين وبلاد الغرب، فضلاً عن كونها مركزاً متقدماً للبوذية(٥).

ثم جاء القرن الأول قبل الميلاد، حيث أغارت على بلاد الهند والسند حشود مختلفة من منغوليا وسيبيريا، ومنها قبائل الهون Hun، وتوالت هذه الحشود، وعلى مراحل متعددة، في شن غاراتها، والقيام بغزواتها، مما ألحق الخراب والدمار في كثير من المدن. وبقي الأمر على هذا المنوال طوال القرون الستة الأولى للميلاد.

وفي القرن السابع الميلادي زحفت أيضاً قبائل «الهون البيض» Ephthalites، وهم فرع من الحشود السابقة، وقاموا بهجماتهم القوية على السند، وغلبوا عليها، وأسسوا أسرة «راي» Rai المالكة فيها، التي ظهر منها الملوك(٦). واتخذت البوذية ديناً رسمياً لها.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٥٤٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٥٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٤٥٧، و٥٥١ و٥٩٨.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية: المجلد الرابع، ص٧٨. والمجلد الثاني عشر، ص٢٥٦.

(٥) المنجد في الأعلام: ص١٣٤.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية: المجلد الثاني عشر، ص٢٥٦.

وبذلك تصبح السند وللمـرة الأولى، مملكة تنعم بالاستقلال، وعـدم التبعية، وتعيش حياة الأمن والاستقرار.

مملكة السند المستقلة:

اعتلى عرش السند ملك يدعى «سهرش». وكان ذا شوكة وعظمة، وله مطامع واسعة في البلاد المجاورة. غزا الفرس بجيش جرار قـاده بنفسه، لكن الحظ خانه في اللحظة الأخيرة، فهوى قتيلاً في ساحة الحرب. فاستولى الفرس على مقاطعتي بلوجستان ومكران التابعتين لمملكته(١).

ثم استخلفه ابنه «سـاه سي» أو «صصة» (كما يرد مكتوباً في المصـادر العربية). واتخذ له وزيراً يسمى «بدهي من»، وكان لهذا الوزير نائب برهمي شاب اسمه «جج بن سلائج» الذي تقـرب إلى الملك، ووثق علائقه بـالملكة «سبه ديوي تهاراني»، وتطـورت مع الأيام إلى غرام عنيـف كان من نتائجـه الآثمة أن اغتـالت الملكة زوجهـا. وأعلنت بين الشعب أن الملك ساه سي أوصى بالعرش لجج بن سيلائج، لأنه لم يكن له خلف. فلم ينبس أحد ببنت شفة، بمن فيهم الوزير «بدهي من» خوفـاً من بطش الملكة. وهكذا انتهى ملوك أسرة راي، وتربع ذلك الشاب البرهمي على عـرش السند، وتـزوج الملكة، وأنجب منهـا ولدين: «داهـرسية»، و«داهر»، وابنة سُميت «ماي».

ولما رأى «جج» الحرب الضروس التي قامت بين المسلمين والأكاسرة في خـلافة عمر بن الخطاب، استغل الفرصة، واسترجع المقاطعتين المغصوبتين: بلوجستان ومكران.

ثم مات جج، فتولى العـرش بعده أخوه «جُنْدر»، وكان على عكس أخيه يديـن بالبوذية، فحكم ثماني سنوات بين إعجاب الشعب، وحبه له. وبعد موته استولى على كرسي المملكة في مدينة «أرور» داهر الابن الأصغر لجج، واستبقى «بدهي من» وزيراً له يستعين به على حل معضلات الأمـور. وفي مدينة «برهمن أبـاد» تولى «راج» بن جندر. وهكـذا انقسمت مملكة السند إلى حكـومتين: الأولى تدين بالبوذيـة، والأخرى تدين بـالبرهمية. ولكن الملك راج لم يدم في حكمه طويلاً، فسرعان ما وافـاه الأجل، وهو لم يحكم أكثر من عام واحد. واستولى على مملكته داهرسيـه، فغزا الممالك القريبة، ووطـد حكمه بعزم وثبات. ثـم جاش في نفسه

(١) مجلة المنهل: المجلد الثالث، ديسمبر ١٩٣٩م، ص٥.

الطمع لضم مملكة أخيه إليه. فجهز جيشاً جراراً، وسار به إلى مدينة أرور، وحاصرها لكنه هلك بالجدري قبل أن يتمكن من تحقيق هدفه. فرأى داهر الفرصة مواتية لأن يضرب ضربته القاضية، ويستولي على برهمن أباد قاعدة ملك أخيه داهرسيه. فكان له ما أراد في زمن قصير.

وهكذا عادت السند مرة أخرى مملكة واحدة. وجلس على عرشها الملك «راي» داهر بن جج بن سيلائج، وهو آخر ملوك السند عندما جاء الفتح الإسلامي في سنة ٨٩ هـ / ٧٠٩م على يد القائد البطل محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند*.

سكان السند:

يتألف سكان السند من عناصر مختلفة المنابت والأصول، ومن أهم هذه العناصر:

١ – **السند** : وهم سكان البلاد الأصليون، ومن أكثرهم عدداً، وأبرزهم شهرة. بحيث عُرفت البلاد بهم، أو عُرفوا بها. وقد تركز هؤلاء القوم في الحوض الأدنى لنهر السند جهة البحر، ولهم مدينة «الديبل» ثغر السند الذي يُبحرون منه للتجارة مع العرب بخاصة مع أهل البصرة في العراق.

٢ – **الهندوس، أو الهنود:** وموطنهم في الجزء الشمالي من نهر السند الذي يسمى بلغتهم «إندوس» أو «سندهو». وهم الذين أنشأوا الديانتين: البرهمية، والبوذية، وأسسوا الممالك وهم جزء من طبقة الحضر الشمالية في الهند.

٣ – **الهون أو «الهياطلة»:** وهم من الشعوب الآرية الوافدة من منغوليا وسيبيريا، واستقروا في السند. وبهم توحدت البلاد لأول مرة، وعرفت الاستقلال، بحيث لم تعد تابعة لأية دولة أخرى.

٤ – **الفرس، أو البارسي Parsi** : ويعود وجودهم إلى كونهم ضمّوا السند إليهم في مرحلة تاريخية سابقة، وطبّقوا نظام حكمهم عليها. وإليهم تُنسب «البارْسيّة» التي هي لهجة إيرانية خاصة بالأدب البارسي. ولا تزال بقاياهم إلى اليوم في السند، وفي مدينة بومباي بالهند، ويُعرفون باسم «البارس» Pars، ويشتهرون بالتجارة.

* باختصار وتصرف عن: المصدر السابق نفسه، من ص٥ – ص٦.

٥ – طوائف أخرى متعددة في مقدمتها: الغجر Gypsy، أو الزط Zutt، أو الجات Jet، وهم من الشعوب السوداء Dark Caucasiod People، وأصلهم من شمال الهند. ويتكلمون لغة قريبة من اللغات الهندية الأوروبية، تسمى «الرومانثية» Romanthy(١). ويبدو أن المسألة هنا تحتاج إلى شيء من التوضيح.

الأصل الجات Jet ومعناه الأسود الفاحم Dark Black، والجت هم الزنوج الهنود، وقد عاملهم جج بن سيلائج معاملة قاسية، وفعل ذلك تماشياً وتطبيقاً لقوانين الطبقات في شبه القارة الهندية التي قضت ألاّ يتملك الجت (الزط) أي شيء فيما عدا الكلاب والحمير، وأن يرتدوا ملابس الموتى، وأن يستخدموا الأوعية (الآنية) المشوية كالفخار، أو الأوعية المكسّرة، وأن يستخدموا الحلي المصنوعة من الحديد الذي علاه الصدأ(٢).

أما الزط فهي معرّب «الجت» طائفة من أهل الهند تُنسب إليها «الثياب الزطيّة». وهم المعروفون في بلاد الشام بـ «النَوَر». ويسميهم بعضهم «المُطربيّة» لأن مهنتهم التطريب بالطبول والزمور والرقص. وقال ابن خلدون هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة(٣).

وهناك أقوال أخرى حول أصل هؤلاء الناس (الجت، أو الغجر، أو الزط) بحيث تردّ نسبهم إلى ذهل بن مرة من أيام حرب البسوس، فيقال لهم «فرسان بني مرة». ولكنها أقوال مسموعة نفتقر إلى مصدر يعتمدها، أو دليل يؤيدها.

ومع ذلك فالمعروف عن الزط (النوّر) أنهم كثيرو التنقل والارتحال من مكان إلى آخر، ولا يرحلون إلا نهاراً، وقت الضحى، أو قبيل الظهر. ومن أعمالهم جمع الحطب وبعر الإبل الجاف يستخدمونه في إيقاد نيرانهم.

الديانة :

إن سكان السند على مختلف عناصرهم لهم معتقدات وثنية، ويعبدون الأصنام. فقسم منهم يعتنق الديانة البرهمية، وقسم آخر يعتقد الديانة البوذية.

---

(١) مادة "Gypsy" Encyclopeadia Britannica, article :، ودائرة المعارف الإسلامية: المجلد العاشر، ص٢٤٩ وما بعدها. مادة «الزط».

(٢) علي بن حامد الكوفي: فتح السند «ججنامة» ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م، ص٤٧.

(٣) المعلم بطرس البستاني: دائرة المعارف، المجلد التاسع، دار المعرفة، بيروت، ص٢٢٣. مادة «زط».

فالبرهمية Brahmanism تعني النظام الديني والاجتماعي الهندوسي القائم على التقسيم الطبقي. وهي تنسب إلى «برهما Brahma، وهو إله هندي يؤلف مع فشنو، وسيفا الثالوث الهندوسي، ويمثل روح الكون العليا. والبراهمة هم كهنة هذه الديانة، وهم أسمى الطوائف عند الهندوس. واحدهم برهمي Brahman، وهو أحد أفراد طبقة الكهنوت العليا في تلك الطائفة(١).

أما البوذية Buddhism، فهي نسبة إلى مؤسسها «غوتاما بوذا» Budda. وتقول هذه الديانة بالتناسخ، وتنكر وجود البعث، وتدعو إلى عيشة الألم والزهد والتجرد من الأنانية والشهوات، للوصول إلى السعادة القصوى التي تسمى «النيرفانا» Nirvana. وهذه الديانة إلى اليوم أكثر الديانات انتشاراً في الهند والشرق الأقصى(٢).

الحياة الاجتماعية والاقتصادية :

أكثر أهل السند كانوا يعيشون في المدن والكور والقرى التي كان يديرها الملوك والأمراء. ويعيش في ما عداها قبائل بدوية رعوية متنقلة، تخضع لأمراء المناطق التي يقيمون بجوارها. وأغلب النواحي التي كانت تتحرك فيها هذه القبائل هي هذه المساحات الشاسعة من الهضاب والجبال، والسهول ذات الأودية القليلة المياه، وتقع جميعها في الجنوب الغربي من السند، وتجاور حدود فارس الشرقية. وقد كان المسلمون في عصر الخلفاء الراشدين يغزون تلك النواحي ثم يعودون إلى ديارهم.

أما بالنسبة لأنماط حياتهم الاقتصادية فكانت متفاوتة أيضاً. فالقبائل تعتمد على تربية الماشية كالأغنام، والأبقار، والجواميس. وأهل القرى والأرياف يشتغلون بزراعة الحبوب كالقمح، والأرز، والسمسم وغير ذلك. وسكان المدن كانوا يعملون بالتجارة وركوب البحر.

علاقات العرب بالهند والسند:

كانت الصلات قائمة بين الهند وبلاد العرب من قبل الميلاد. وكان التجار العرب هم واسطة هذه الصلات، وسفنهم هي التي كانت تقوم بنصيب كبير في نقل التجارة بين الهند وشبه الجزيرة العربية. ومن الطبيعي أن يكون التجار، والبحارة العرب بحكم عملهم أكثر

---

(١) منير بعلبكي: معجم المورد (انجليزي – عربي)، مادة Brahma . والمعجم الوجيز مادة «البراهمة».

(٢) المصدران السابقان، مادة Budda، و«بوذا»، و«البوذية» على التوالي.

صلة بالهنود. كما كانت لهم معرفة ودراية بالمدن المهمة الواقعة على الساحل الشرقي الطويل لبحر العرب، حيث أن الثغور والموانىء في الهند والسند كانت مراكز تصدير واستيراد لمعظم التجارة القائمة بين الشرق والغرب(١).

وبين التجارة، ومغامرات ركوب البحر أُعجب العرب بالهند، وطبيعتها الخلابة، وتأثروا بها، حتى أنهم سموا بناتهم باسمها «هند»، رمزاً لسحرها وجمالها. كما سمّوا سيوفهم المصنّعة في الهند هندية «سيف هندواني»(٢).

ومن سواحل الهند أبحر التجار العرب عبر المحيط الهندي إلى خليج البنغال، وبلاد الملايو (ماليزيا)، وجزر أندونيسيا، حتى كوّنوا لهم جاليات عربية في بعض تلك البلاد(٣).

ولعل أقدم تاريخ لنشأة هذه العلائق التجارية بين العرب والهند، كان في القرن العاشر قبل الميلاد. وبخصوص هذه العلاقات يقول الباحث الهندي الدكتور «تاراشند»(٤): «إن الروابط بين الهند والبلاد العربية: جزيرة العرب وفلسطين ومصر: قديمة جداً. فالملك سليمان (حكمه من ٩٧٠ - ٩٣٠ ق. م) كان يستورد الذهب والفضة والعاج والطواويس من بلاد الهند... وانشأ البطالسة موانىء على البحر الأحمر لتنشيط التجارة الهندية.. وكانت في الإسكندرية جالية هندية».

كما لا يغيب عن الذهن أن جزيرة «سُقُطْرى» العربية كانت تحتضن جالية هندية تقيم فيها، وذلك قبل الميلاد أيضاً. وأن هؤلاء الهنود قد زرعوا شجراً يسمى «دم الأخوين» الهندي (أي الصمغ). والصمغ في الأصل يوصف بأنه «دمعة شجرة هندية». كما زرعوا الصبّار. وزيادة على ذلك، فإن جالية من الطبقة الأرستقراطية اليونانية قد أقامت واستوطنت في هذه الجزيرة، ونقلت منها اللبان والمر إلى الكنائس المسيحية(٥).

---

(١) الدكتور عبدالمنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند، ط٢، منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١، ص٨٨.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، المجلد الأول، ط٢، ص.

(٣) تاريخ الإسلام في الهند، ص٨٨.

(٤) في بحث طويل له «كيف وصل المسلمون إلى الهند؟»، نشرته له مجلة «ثقافة الهند» في مارس (آذار) سنة ١٩٥٠م. أو انظر بشأنه تاريخ الإسلام في الهند، ص٩٥.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الحادي عشر، مادة «سُقُطْرى».

خيوط فجر الإسلام في القارة الهندية:

حين ظهر الإسلام، ودخل العرب في دين الله أفواجا، كان منهم هؤلاء التجار والبحارة العرب من الحضارمة وغيرهم، فحملوا معهم دينهم الجديد إلى البلاد التي يتعاملون معها. وكان من البدهي أن يتحدث هؤلاء في حماس وإيمان عن عقيدة الإسلام وتعاليمه، وعن الرسول الكريم وسيرته، ودعوته إلى التوحيد والإخاء والمساواة والمعاملة الحسنة بين الناس جميعاً. وكانت الهند تئن يومذاك من التفرقة، ونظام الطبقات القاسي الذي تقوم عليه ديانتهم. فكان حديث التوحيد، والمساواة نغمة جديدة يحلو لهم أن يسمعوها. وكانت النتيجة أن تتفتح القلوب لهذا الدين، ويقبل الناس عليه ليتخلصوا من العناء النفسي والاجتماعي الذي كانوا يعانونه، كما ينفضون عنهم الوثنية الهندوسية، وما تحويه من خرافات وأساطير. مما أدى إلى إقبال بعض الهنود على الإسلام، والدخول فيه.

ولهذا وجد الإسلام في الهند بداية طريق له إلى الناس هناك. وأصبح في كل ميناء، أو مدينة اتصل بها المسلمون جماعة اعتنقوا الإسلام، وأقاموا المساجد، وباشروا شعائرهم في حرية تامة، لما كان للعرب المسلمين في ذلك الزمن من منزلة كبيرة عند الحكام، باعتبارهم أكبر العوامل في رواج التجارة الهندية التي كانت تدر على الحكام الدخل الوفير.

أجل! هذه دعوات فردية ذات تأثيرات إيجابية محمودة، ولكن لم يكن من السهل على كتب التاريخ ومؤلفيها أن يتتبعوا هذه الجهود الفردية التي بذلها هؤلاء التجار والبحارة العرب المسلمون في سبيل الإسلام، ولذلك اكتفوا بذكر العنوان لهذه الجهود المثمرة(١).

ونخلص من هذا كله لنقول: إن هذه الجهود الفردية النبيلة كانت خيوط فجر الإسلام في الهند والسند، تبيّنها عدد كبير منهم، فابتهجوا بصدق رؤيتها، وصار يحدوهم الأمل في أن يعقب هذه الخيوط تباشير صبح إسلامي يُطلّ على القارة الهندية.



---

(١) تاريخ الإسلام في الهند، ص٨٩، وما بعدها.

الفصل الثاني

فتح السند وطبيعته



الفصل الثاني
فتح السند وطبيعته

معنى الفتح ومفهومه:

إن كلمة «فتح» مشتقة من الفعل الثلاثي «فَتَحَ»، ومعناه اللغوي: قضى. وفتح بين الخصمين فتحاً: قضى، أو حكمَ(١). وفي القرآن الكريم: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾(٢).

ويتضمن هذا الفعل أيضاً عدة معانٍ أخرى، نذكر منها:

فتح عليه: هداه، وأرشده.

وفتح الله قلوبهم للإسلام: شرح صدورهم، وهداهم للإسلام، وأرشدهم إليه.

وفتح الطريق : هيّأه، وأذن بالمرور فيه.

وفتح البلدَ: غلب عليها، وتملّكها.

والفتوحات : ما فُتح من البلدان بالحرب.

والنتيجة أن المعنى الكلي للفتح: هو إزالة إغلاق الشيء، أو القضاء على صعوبته، أو شدته، أو عسرته.

أما مفهوم كلمة «الفتح»: فهو مجموع الصفات، والخصائص الموضحة للمعنى الكلي، أو الشامل للكلمة نفسها.

هذه خلاصة ما يتعلق بمعنى الفتح ومفهومه في النطاق اللغوي، وما يدور حولهما من شروح وتفاصيل، استناداً إلى المعاجم اللغوية(٣)، التي جرى اعتمادها في هذا البحث.

---

(١) المعجم الوجيز: مادة «فتح».

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٩.

(٣) المعجم الوجيز : مادة «فتح»، ومادة «فهم». والمنجد في اللغة والأعلام: مادة «فتح».

الفتوح الإسلامية عامة:

بالنسبة للفتوح الإسلامية بعامة، فإن المسلمين قد فتحوا بعض البلدان سلماً، وبعضها الآخر عنوة. ومع هذه الفتوح اتسع انتشار الإسلام في بقاع الأرض.

إن نشر الإسلام بين الناس – أينما كانوا – هو غاية المسلمين الأولى. ولم يكن هذا الأمر يستوجب بالضرورة أعمالاً حربية، أو التهديد بها. ذلك أن الدين إيمان يرسخ في القلوب. والقلوب لا يستطيع أحد ما أن يفرض عليها شيئاً بالقوة، أو الإكراه. فالله تعالى يقول في محكم آياته: ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾(١).

ولهذا كان كل ما يبتغيه المسلمون أن يُفسح الناس لهم طريق الدعوة إلى الإسلام بالحكمة، والقول الطيب، والموعظة الحسنة، بدون أية عوائق، أو موانع، أو عقبات مهما كانت؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿أُدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾(٢).

والتزاماً بهذا المنهج الإسلامي القويم، وتواصلاً مع دعوة الرسول ﷺ، واقتداءً بهديه، قصد الخلفاء الراشدون من بعده، دعوة الناس خارج شبه الجزيرة العربية إلى الإسلام بالرفق والحسنى. وإن دعوة هؤلاء الناس إلى الإسلام تنقذهم من الشرك والضلال، أو من عبادة الأصنام.

غير أن ملوك الدول التي كانت متاخمة للمسلمين: كالفرس والروم والسند، مكروا بالإسلام، وناصبوه العداء، وكادوا له، وقاوموه. فصار، والحالة هذه، لا مفر من المواجهة والصدام والانتقام، حتى تكون كلمة الله هي العليا.

مصادر تاريخ فتح السند :

لقد عُني مشاهير المؤرخين القدماء بجمع أخبار غزوات السند وفتوحها، ودونوها في مصَنّفاتهم، على تفاوت فيما بينهم. حيث أن بعضهم صنّف كتباً خاصة بهذه الأخبار، وبعضهم الآخر سجّلها في باب مستقل بها في أحد كتبه.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢) سورة النحل : الآية ١٢٥.

ويبدو أن أقدم من ألّف كتباً جعلها مقصورة على الفتح الإسلامي للسند، هو المؤرخ النسابة أبو الحسن علي بن محمد المدائني (١٣٥ - ٢٢٥ هـ / ٧٥٢ - ٨٣٩م). وله في هذا القبيل ثلاثة كتب، هي:

«كتاب أخبار السند»، و«كتاب ثغر السند»، و«كتاب عمال السند». ولكن - مع الأسف الشديد - فإن هذه الكتب الثلاثة ليست موجودة الآن، وإنما هي جميعها مفقودة(١).

والمدائني في كتبه المشار إليها، قد روى كثيراً من روايات أخباره عن أستاذه العلامة أبي بكر الهذلي أحد أئمة الرواة البصريين، الذي كان مرجعاً في فتوحات المشرق، وعاصر الخليفة السفاح مؤسس الدولة العباسية، ونال حظوته(٢).

وللمدائني أيضاً - فوق ما تقدم - كتاب رابع عن بني ثقيف، بعنوان «تاريخ ثقيف» الذين قاموا بدور حاسم في فتح مكران، والسند. غير أن هذا الكتاب ليس موجوداً في الوقت الحاضر، بل هو مفقود كذلك(٣).

ونستنتج من هذا كله أن المدائني هو أقرب مؤرخ للعصر الذي تمّ فيه فتح السند بأكملها. وأنه كان سباقاً في تسجيل أحداث الغزوات الأولى للسند، والفتح الأخير لها على يد القائد الفاتح محمد بن القاسم الثقفي. ولهذا تكون له (المدائني) الريادة في هذه الناحية، مما جعله يحتل المرتبة الأولى فيها.

ثم يحتل المرتبة الثانية وراءه - بعد طول مدة العلامة المؤرخ النسابة أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م). وله كتاب «فتوح البلدان»، وفيه باب مستقل في فتوح السند من أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أيام المتوكل العباسي إلى سنة ٢٥٥ هـ.

والبلاذري في كتابته للفصل الذي عقده للحديث عن «فتح السند»، كان يستند بشكل رئيس إلى روايات المدائني - كما هو وارد في النص عنده - غير أنه اختصرها كثيراً، بحيث لا نحصل منها إلا على الحد الأدنى من المعلومات الجوهرية التي نحتاج إليها.

---

(١) العقد الثمين: ص٥. والدكتور ن. أ. بلوش: فتح السند، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٩١م، ص٢٢.

(٢) فتح السند «ججنامة»، ص٧٦، و٧٨.

(٣) فتح السند (دار طلاس)، ص١٢.

ثم بعد عدة قرون، يأتي الأديب الباحث علي بن حامد بن أبي بكر الكوفي الأوشي، ليحتل المرتبة الثالثة في هذا المضمار. حيث أنه في سنة ٦١٣ هـ ١٢١٦م على وجه التحديد، حصل على كتاب عربي مخطوط، فيه ذكر تاريخ السند، وغزوات المسلمين عليها وفتوحاتها، وذلك عندما زار مدينة «بكهر» قرب «أرور» في السند، ونزل ضيفاً على قاضي تلك المدينة. وهذا القاضي هو الإمام الجليل إسماعيل بن علي بن محمد بن موسى بن محمد ابن موسى بن يعقوب بن طائي بن محمد بن شيبان بن عثمان الثقفي(١)، الذي كان يحتفظ بهذا المخطوط بالنص العربي الأصلي. والذي يمكن أن يكون قد كُتب قبل نشأة الخلافة العباسية في سنة ١٣٢ هـ.

وقام الكوفي بترتيب بعض أجزاء هذا الكتاب المخطوط، الخاصة بتاريخ فتوح السند إلى محمد بن القاسم الثقفي، وأعاد كتابتها باللغة العربية من جديد. وتعهد بترجمتها إلى اللغة الفارسية، بهدف أن تُعرف، وتُنشر بشكل واسع، كما صرّح في المقدمة التي وضعها لهذا الكتاب؛ وسمّاه «فتحنامه سند»، ومرة أخرى أطلق عليه اسم «ججنامة» نسبة إلى الملك جج ابن سيلائج ملك السند قديماً(٢).

ولكن الاسم الأصلي الذي اعتمده الكوفي للكتاب أولاً، ثم عدل عنه، هو «منهاج الدين»(٣). وهو الاسم الذي يأخذ به المؤرخون الهنود المسلمون، وبخاصة علماء الدين منهم، في تصانيفهم، أو يعتمدون اسم «فتوح السند»، والأسماء الأخرى ليست واردة لديهم.

ونعود إلى ترجمة الكتاب. لقد جاءت ترجمة الكوفي على صورة نسخة فارسية شعبية، وأضاف إليها بعضاً من أشعاره. وبعد وفاته توالى نسخ هذا النص الفارسي مرات ومرات، مع بعض الإضافات من قبل النساخ. لدرجة أن اختلط الأمر، بحيث فُقدت النسخة القديمة لكتاب «فتحنامه»، أو ضاعت. وإن آخر نسخة مخطوطة، ومنقولة عنها تمّ نسخها في سنة

---

(١) فتح السند «ججنامة»، ص١٠.

(٢) كما هو العنوان المطبوع على الكتاب، وصورة الغلاف الداخلي له أيضاً.

(٣) الاسم الأصلي هو: «منهاج الدين والملك الحضرة الصدر الأجلّ عين الملك». و«عين الملك هو لقب رئيس الوزراء يومذاك حسين بن أبي بكر الأشعري في عهد السلطان ناصر الدين قباجة حاكم السند وجنوب غرب البنجاب (٦٠٢ – ٦٢٥ هـ / ١٢٠٥ – ١٢٢٨م). مقدمة الكتاب نفسه، ص٥.

١٠٦١ هـ. وهي محفوظة في مكتبة الجامعة الإسلامية في إسلام أباد بالباكستان. وعن هذه النسخة جرى طبع الكتاب المترجم(١).

والخلاصة هذه هي أقدم المصادر التاريخية التي تناولت موضوع فتح السند، ومن أكثرها أهمية، وإفادة. وإن كان كتاب «فتح السند» يمتاز من الكتب السابقة عليه بعدة خصائص. ومنها على سبيل المثال، ليس إلا:

١ - أنه يعتمد على الروايات الأكثر تفصيلاً عن الفتح الإسلامي للسند منذ المقدمات الأولى له حتى استكماله. وهذه الروايات لا تتوافر في أي عمل تاريخي آخر معروف.

٢ - أنه يحتوي على مقتطفات من المعلومات المهمة عن التوزيع العرقي لسكان السند، وعن البوذية في السند، وأن شعب السند على مختلف أجناسه وطبقاته، كان يعتنق البوذية ديناً له(٢).

مقدمات فتح السند ومراحلها:

لقد مرت مقدمات هذا الفتح بمرحلتين متواصلتين هما:

١ - في عصر الخلفاء الراشدين:

وفي هذا العصر كانت المقدمة الأولى للفتح (من ١٥ - ٤٠ هـ).

لقد بدأ المسلمون غزواتهم الأولى للسند في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك سنة ١٥ هـ على وجه التحديد. حيث أرسل هذا الخليفة، في تلك السنة، عثمان بن أبي العاصي الثقفي والياً على البحرين وعُمان، وجهزه بجيش دوّخ به البحرين وعمان، فأعاد النظام إلى تلك الربوع، واتسقت له طاعة أهلها.

ولما استقر هذا الوالي في عمان، أخذ بالتفكير في التوجه بجيشه نحو ثغور السند، فغزا «تانه»(٣) Thana، ولكنه عاد. ثم انتدب أخاه الحكم بن أبي العاصي لقيادة جيش ثانٍ سار

(١) صورة الغلاف الداخلي من كتاب فتح السند «ججنامة» ومثبتة في أول الكتاب، وص٢٤٠ من الكتاب نفسه.

(٢) فتح السند (دار طلاس)، ص٢٢ و٢٣.

(٣) تانه معرب «تهانه». وهي اليوم مدينة هندية، ومركز مديرية في ولاية مها راشترا على الساحل الغربي للهند على بحر العرب. وتقع إلى الشمال من بومباي، وتتصل بها بعد أن كانت تبعد عنها قديماً نحو خمسة عشر ميلاً.

العقد الثمين: ص٤٥، والمنجد في الأعلام: مادة «تانه»، وتاريخ الإسلام في الهند ص١٠١.

من البحرين فغزا «بروص»(١) Broach، وجزيرة «ابركـاوان» في خليج بحر العرب بين عمان والبحرين. كما وجه أخاه المغيرة بن أبي العاصي على رأس جيش ثالث انطلق به لغزو «خور الدَّيبل»(٢)، فلقي العدو، وظفر(٣).

وكـانت السنـد يـومـذاك تحت حكم الملك جج بن سيـلائج، ومضى على حكمـه خمس وثلاثـون سنة، ويتبع له الملك سامـة بن ديوائج ملك الديبل. وكان أهل الـديبل من التجار المشهورين، ولهم عـلاقات تجاريـة تمتد إلى جـزيرة سرنـديب الواقعـة في المحيط الهندي بأقصى القارة الهندية في الجنوب(٤).

ولا شك أن عثمان بن أبي العاصي قد استعـان في توجيه هذه الحملات بـالسفن العربية وبحارتها المسلمين الـذين كانـوا يعرفون جيـداً تلك الثغور. وكانـوا سادة البحـر في هذه الناحية من قديم، كما مر بنا سابقاً خلال الحديث عن علاقة العرب بالهند والسند.

وهذه الغزوات الثلاث من أقدم ما هو معروف عن غزوات المسلمين، وفتوحاتهم في شبه القارة الهنـدية، كما ورد في المصادر الخاصـة بتاريخ فتوح السنـد، وفي المؤلفات والمراجع التاريخية الأخرى.

ومع ذلك، فإن المسلمين في غزواتهم لثغـر السند في عهد الخليفـة عمر، لم يتوقفـوا عند هذه الغزوات فقط؛ بل إنهم أعـادوا الكرّة مرة تلو الأخرى من جهـة البحرين وعمان تارةً، ومن جهة «تـوج» في بلاد فـارس تارة أخـرى. ففتحوا مقـاطعة مكران، بقيـادة الحكم بن

---

(١) بروص معرب «بهروج». وهي من أشهر مدن الهند البحرية على الساحل الغربي، وكانت ميناءً قديماً. وتقع شمال سورت بينها وبين نهر نربدا. وهي اليوم مديرية في مقاطعة كجرات في شمال بومباي.

العقد الثمين، ص٤٥. وتاريخ الإسلام في الهند، ص١٠١.

(٢) الدّيْبل (بفتح الدال وسكـون الياء): مدينة ساحلية كبيرة تقع في دخلـة من البر في خليج السند. وتعود أهميتها في أنها أكبر فُـرض (مراسي السفن) في السند، وأشهـرها. وهي اليـوم خرابة انكشفت آثـارها وأطلالها التي تعرف باسم «بانبهور»، وتقع على مسافة أربعين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من كراتشي، وعلى نحو أربعة أميال إلى الجنوب الغربي من مدينة غارو.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ص٤٢٠.

(٤) سرنديب: هـي سيلان Cylon بـاللغة السنسكـريتية، أو سيلـون Celon، كما ورد في الموسوعـات ودوائر المعارف الكبرى.

عمرو التغلبي. ثم مدينة «قندابيل»(١) التي استطاعوا أن يقيموا لهم فيها معسكراً ثابتاً، تمركزت فيه حامية من الجند، كانت نواة لوجود المسلمين هناك على أرض السند، وتثبيت أقدامهم فيها.

ولئن كانت مصادر تاريخ فتوح السند لم تذكر شيئاً عن هذا المعسكر، فإن أول إشارة تشير إلى وجوده، قد وردت عرضاً في «الطبقات الكبرى» لابن سعد، في ترجمة سهية بنت عمير الشيبانية(٢) التي قالت: «نُعي إليّ زوجي من قندابيل، صيفي بن قسيل، فتزوجتُ بعده العباسَ بن طريف أخا بني قيس، ثم إن زوجي الأول جاء. فارتفعنا إلى (الخليفة) عثمان، فأشرف علينا، فقال: كيف أقضي بينكم وأنا على حالي منه؟ قالوا: فإنا قد رضينا بقضائك، فخيّر الرجل الأول بين الصداق، أو المرأة، فاختار الصداق».

وهكذا نرى أن للمسلمين وجوداً ثابتاً في بقعة نائية في الطرف الشمالي الغربي من أرض السند.

هذا ما كان من أمر حركة الغزو والفتح لثغور السند في خلافة عمر بن الخطاب حتى استشهاده في سنة ٢٣ هـ. ولهذا الخليفة مكانة ما بعدها مكانة في نفوس مسلمي الهند، حيث يقول مؤرخ الهند الإسلامي الشيخ القاضي أبو المعالي المباركبوري(٣): ولعمر بن الخطاب منّة على الهند لا تنساها إلى يوم القيامة، حيث أن أهل الهند كانوا يحبون الإسلام والمسلمين بمجرد سماع سيرته الجميلة، ودخل الإسلام والمسلمون في الهند في خلافته من بعد، وكذلك لثقيف وأبنائها يد على مسلمي الهند، فعثمان والحكم والمغيرة بنو أبي العاصي الثقفي فتحوا بابها أولاً، وتوغل فيها محمد بن القاسم الثقفي بخيله ورجله آخراً، حتى صار الجو صافياً.

وحينما تسلم عثمان بن عفان - رضي الله عنه - زمام الخلافة سنة ٢٣ هـ، أراد أن

---

(١) قندابيل: مدينة بالسند، وهي قصبة لولاية يقال لها البُدْهة. ومن قصدار إلى قندابيل خمسة فراسخ.
معجم البلدان، المجلد الرابع، ص٤٠٢. وقندابيل تسمى (جنداثا).
فتح السند «ججنامه»، ص٧٣.

(٢) ترجمتها في ج٨ من الطبقات الكبرى، ص٤٧١.

(٣) في كتابه العقد الثمين، ص٢٤، وص٤٥.

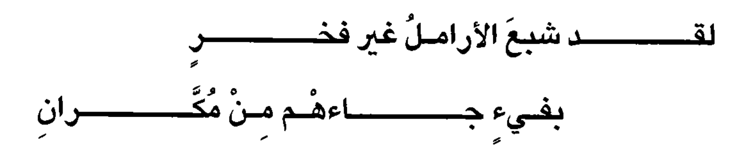
يرسل جيشــاً لغزو الهند والسنــد عن طريق البصرة هــذه المرة. وذلك رداً على استفزازات الملك (راي) جج، ومهاجمته معسكر المسلمين في مكــران. وكان من عثمان يومذاك أن بعث عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة واليــاً على البصرة. وكتب إليه كتاباً يأمره فيه أن يوجه إلى السند رجلاً من أهل الثقة والصلاح يستطلع أحوالها، ويأتيه بأخبارها. فاختار عبدالله من جهته «حكيم بن جبلة العبدي»، وأرسله للقيام بهذه المهمة(١).

ولما عــاد حكيم، وفي جعبته رصيــد من الأخبــار والمعلــومات عن أهــل السند، ومعــاقل سكناهم، وأساليب قتالهم، أوفده ابن عــامر إلى الخليفة عثمان، ليخبره عما شاهد، ويحدثه بما عرف. وعندما وصل دار الخلافة، سألــه عثمان: يا حكيم هل رأيت أهل السند، وعرفت أحوالهم؟ قال حكيم: نعم يا أمير المؤمنين. فقال له: صف لي ذلك، فقال يصف البلاد:

ماؤهــا وشل، وثمرها دقل، وأرضهــا جبل، ولصّها بطل، إن قلّ الجيش فيها ضــاعوا، وإن كثروا جاعــوا. فقال له عثمان: أساجع أم خــابر؟ فقال: بل خابــر. لذلك احترز عثمان، وعزف عن غزوها(٢).

ويبدو لنــا أن هذا الوصف لا ينطبق على بلاد السنــد كلها، وإنما هو خاص بــالأطراف النائيــة عن مكران، أي تلك الهضــاب والجبال والمنــاطق الصحراوية القــاحلة، الــواقعة في الجنوب الغــربي من السنــد. وهذه الأمكنة هــي: كالات وزاهدان وسيستــان من مقــاطعة مكران، أو بلاد بلوشستان التي تحاذي منطقة السند وتطل عليها.

ولهذا عــزف عثمان عن غزو تلك البــلاد التي ينطبق عليهــا الوصف الســابق. فكتب إلى الحكم بن عمرو التغلبي والي مكران أن لايجوزنّ مكران أحد من جند المسلمين، وأن يقتصر على ما دون نهر السند. وأمره ببيع الفيلة بأرض الإســلام وتقسيم أثمانها على من أفاء الله عليه(٣). وقال الحكم بن عمرو التغلبي في ذلك شعراً:



---

(١) فتوح البلدان: ص٤٢١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٢١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٤٢١. وفتح السند «ججنامة»؛ ص٧٣ وما بعدها.

أتـــاهمْ بعـــد مسغبـــةٍ وجهـــدٍ

وقـــد صَفِـــرَ الشتـــاءُ مـن الـــدخـــانِ

فـــإنيّ لا يَـــــــذمُّ الجيـــشُ فعْلي

ولا سيفـي يُـــــذمُّ ولا سِنـــــاني

غَـــــداةً أدفـعُ الأوبَـــــاشَ دَفْعـــــاً

إلى السنـــد العـــــريضـــة والمداني

وَمِهـــــرانُ لنـــــا فيما أردنـــــا

مطيـعٌ غيرَ مسترخِـي العِنـــــانِ

فلـــــولا مـــــا نهى عنـــــه أميري

قطعنـــــاه إلى البُـــــدَدِ الـــــزَوَّاني(١)

وهكذا اكتفى الخليفة عثمان بن عفان بأن عـزّز وجود المسلمين في مكران، التي صارت لأول مرة جزءاً من أرض الخلافة الراشـدة بحيث كان فيها العزل والنصب من قبل خليفة المسلمين(٢).

ولما وصلت الخلافة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وذلك في سنة ٣٥ هـ، استأنف توجيه الغزوات إلى ثغر السند. فقد أرسل في أواخر سنة ٣٨ هـ، وأوائل سنة ٣٩ هـ جيشاً من ألف مقـاتل مسلح، بقيادة الحارث بن مـرة العبدي (أحـد قواده في أيـام صفين) ومعه الأعيان والأكابـر. وتوجهوا جميعاً لغـزو ثغر السند، وفتحها من طـريق «بهرج»، و«كوه بايه» في أرجـاء مكران. فجاوز هذا الجيش مـا وراء مكران إلى باقي ديار قنـدابيل، وتوغل

---

(١) الطبري: ج ٤، ص١٨١. والعقد الثمين: ص٥١.

ولعل المراد بالبدد الزواني في الأبيات السابقـة، أصنام بهيروا، في السند التي عليها أوقاف من الزواني والزناه. قـال المقدسي في أحسن التقاسيم، ص٤٨٣ في إقليم السند: صنمُ (بُدّ) بهيروا، خـدّامه يأكلون من جُدُرِ الزناة، وعليه اوقاف من الزناة كثيرة، فهو فتنة». العقد الثمين، ص٥١.

(٢) العقد الثمين، ص٨٣.

حتى وصل إلى جبال كيكانان(١)، ولم يقف أحد من أهل هذه المناطق في وجه المسلمين. وفتح الله على المسلمين وقائدهم بالنصر والظفر، حيث أصابوا المغانم الكثيرة، ومنها الخيول الكيكانية المشهورة، كما أخذوا السبايا بأعداد كبيرة. وقد قسم الحارث بن مرة في يوم واحد ألف رأس. ثم إنه قُتل على يد جماعة من فلول الأعداء الهاربين الذين لجأوا إلى شعاب أحد الجبال هناك في سنة ٤٢ هـ(٢).

وعلى الرغم من غدر أهل مكران بقتلهم القائد الحارث بن مرة العبدي، فإن رقعة ديار المسلمين في جهة الشرق، صارت تأخذ بالاتساع شيئاً فشيئاً.

٢ - في خلافة معاوية وابنه يزيد:

وفي عهد هذين الخليفتين الذي امتد من ٤٠ - ٦٤ هـ، كانت المقدمة الثانية لفتح السند.

قامت الخلافة الأموية سنة ٤٠ هـ، وكان معاوية بن أبي سفيان مؤسساً لها، وأول خليفة يتولى نظام الحكم فيها. وفي عهده الذي استمر حتى سنة ٦٠ هـ، ازداد اهتمام المسلمين بأمر إقليم السند الذي أصبح متاخماً لحدودهم من جهة مكران وفارس وخراسان وسجستان. وصار لابد من متابعة الغزوات وحملات الفتح في ذلك الإقليم.

فما كان من الخليفة معاوية، إلا أن أعاد عبدالله بن عامر بن كريز والياً على البصرة، وضمّ إليه خراسان وسجستان في سنة ٤١ هـ، وقام هذا الوالي في سنة ٤٢ هـ، بإرسال عبدالرحمن بن سمرة بن حبيب القرشي عاملاً على سجستان، فبدأ يغزو البلد قد كفر أهله، فيفتحه عنوة، حتى بلغ مدينة كابل فحاصرها أشهراً، ونصب عليها مجانيق فثلم سورها ثلمة عظيمة فلم يقدر أهلها على سدّها وخرجوا يقاتلون المسلمين، فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة، ووجه عبدالرحمن ببشارة الفتح إلى معاوية في دمشق.

ومع روعة هذه الانتصارات، ازداد حماس المسلمين إلى مواصلة الزحف والتقدم، فانطلق عبدالرحمن بجيشه إلى «بست»، ففتحها عنوة، ثم اتجه إلى «زران» فهرب أهلها وغلب عليها، ثم تحرك إلى «خشك» فصالحه أهلها، ثم أتى «الرخج» فقاتلوه، فظفر بهم

---

(١) كيكانان، أو كيكان تعريبها القيقان. ويقال لها اليوم كلات أو قلات، وتقع في بلوشستان.

(٢) فتوح البلدان: ص٤٢١. والعقد الثمين: ص ص ٩٩ - ١٠٢.

وفتحها. وأخيراً وصل إلى زابلستان (وهي غـزنة وأعمالها) فقاتله أهلها، وكانـوا قد نكثوا ففتحها(١).

وكان مع عبدالرحمن بن أبي سمرة في هـذه الفتوح جماعة من أشراف القوم، منهم عمر ابن عبيدالله التيمـي، والمهلب بن أبي صفرة الأزدي، وكلاهما كانت لـه يد طولى في حملات الفتح أيضاً. ذلك أن عمر بن عبيدالله قد افتتح مدينة أرمائيل(٢) (أرض بيله) من السند في سنة ٤٣ هـ.

أما المهلب بن أبي صفرة فقام بغزوه سنة ٤٤ هـ، حيث سار إلى قندابيل حتى وصل إلى «بنة»(٣) بين الملتان وكابل، فلقيه العدو فقـاتله ومن معه، وكانت الغلبة للمسلمين، ثم لقي المهلب ببلاد ثمانية عشر فـارساً من الترك فقاتلوه، فهزمهم وقتلهم جميعـاً. وفي هذا الغزو ظفر المهلب وجنده، وغنموا وعادوا سالمين. وفي بنة يقول الأزدي(٤):

ألمْ تَـــرَ أن الأزْدَ ليلـــةَ بُيِّتُـــوا

ببنَّـــةَ كـــانـــوا خيرَ جيشِ المهلَّـب

وأيضاً، في سنة ٤٤ هـ نفسها، وأخبار الفتح والغنـائم، ترد إلى الخليفة معاوية، فإذا به يرسل عبـدالله بن سوّار العبـدي على رأس جيش من أربعة آلاف مقاتل لفتح بـلاد السند. وقال له: في بلاد السند جبل اسمه كيكانان حيث الـرجال الأشداء، والخيول العالية القامة، وقد وصلت من تلك المنطقـة قبلك غنائم كثيرة، وأهل المنطقـة غدارون معانـدون، يلتجئون وقت الضيق إلى الجبال، ويتمردون على الولاة والفاتحين(٥).

---

(١) السيد أحمد بن زيني دحـلان (مفتي مكة): الفتوحات الإسـلامية بعد مضي الفتوحـات النبوية، ج١، مطبعة المدني، ١٩٦٨م، مـؤسسة الحلبي وشركـاه، القاهرة، ص١٦٠. والعقـد الثمين: الصفحات ٩٤، ٩٥، ٩٦، و١١٠. ود. عبدالشافي محمد عبـداللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي، ط١، دار الوفاء، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٣٥٥.

(٢) هي قصبة مديرية لس بيله على بعد ستين ميلاً من كراتشي.

(٣) بنَّة: يقال لها اليوم بنوكوهات، وتقع في الباكستان.

(٤) فتوح البلدان: ص٤٢١. والعقد الثمين: ص١١٤. والعالم الإسلامي في العصر الأموي: ص٣٥٦.

(٥) فتح السند «ججنامه»:: ص٧٨.

ولما وصل جيش المسلمين إلى بلاد كيكيـانان (القيقان)، واحتدمت المعـارك ضد الكفار، انتصر المسلمون عليهم، وأخذوا الغنـائم الكثيرة، وقادوا منها الخيول القيقـانية المشـهورة، وكذلك البراذين القيقانية التي استخدموها في نقل أحمالهم.

وبعد هذا النصر وفد عبـدالله بن سوار إلى معاوية في دمشق، وأهدى إليـه خيلاً قيقانية من تلك الغنائم، وأقـام عنده - بعد أن استخلـف في القيقان كُرَز بن أبي كُـرز العبدي - ثم رجع ابن سـوار إلى عملـه ثانية، فوجـد أن أهل القيقان قد تمردوا، ونقضوا العهـد، وأعلنوا العصيان، وسدّوا منـافذ الجبال وممراتها. وإزاء هـذه الظاهرة الغريبة كـان لابد من عمل حازم. فاستجمع ابن سوار جيشه، ودفع به إلى ميـدان القتال، وخطب جنده قائلاً: يا أبناء المهـاجـرين والانصـار لاتـديروا وجـوهكم عن الكفـار حتى تنـالـوا الشهـادة. فتشـجع المسلمـون، وحمي وطيس المعـركـة، وتصـافحـت السيـوف. وألقى الكفـار بكل ثقلهم في ساحات هـذه الحرب الدائرة، واستجاشوا الترك (أي استنجدوا بهم)، وأخـذ القتال يشتد ضراوة، والعـدو يتقدم، حتى هُـزم المسلمون في النهـاية، وامتـلأت ممرات الجبـال بجثث القتلى. واستشـهد عبدالله بن سوار في تلك المعـركة، وذلك سنة ٤٧ هـ، ورجع من رجع من جيش المسلمين إلى مكران(١).

وكان عبدالله بن سـوار هذا قائداً شجاعاً، ورجلاً سخيّاً، فلم تكن تـوقد مع ناره نار في معسكره، ولكنه رأى ذات ليلة ناراً موقدة، فبعث أحد أتباعه ليتحرى عن الموضوع، فجاءه الخبر بأن رجلاً من عسكره ولدت امرأته في هـذه الليلة، فاضطر إلى إشعال النار ليطبخ لها خبيصاً، فأمـر عبداللـه صاحب طعامـه بعمل الخبيص، وتوزيعـه على الجيش مع وجبات طعامهم لمدة ثلاثة أيام إكراماً منه لتلك المرأة النفسـاء. وهذا دليل على سخائه(٢).

وفي صـدد غزوات عبـدالله بن سـوار، والإشـادة بجـوده، قال الشعـراء شعراً رددتـه الألسنة في مجلس الخليفة معاوية(٣)، فقال بشر بن منقذ المعروف بالأعور الشَّنِّي:

---

(١) فتوح البلدان: ص٤٢١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٢١. وفتح السند «ججنامه»: ص٧٨.

(٣) العقد الثمين: ص١١٥ وما بعدها. وفتح السند «ججنامه»: ص٨٠.

أبلغ ربيعـــــة أعـــــلاهـــــا وأسفلهـــــا

إنــــا وجـــدنـــــا ابــن ســــوّارٍ كســـوّارِ

لا يسمـن الخيـل إلا ريـث يمهلهـــــــــــــا

ومـــــــا ســـــــواه فتردى طـــــولَ أعمارِ

وقال شاعر ثانٍ:

كنْ كـــابـن ســـوارٍ إذْ جـــاشت مـــراجلُـــهُ

في الحرب لا أوقـــــدت نـــــار لها بعـــــدهْ

كـــانت مـــراجلـــه للــــرزق ضـــامنـــةً

فـإنهن بنـــــــــــــاتُ الحرب والجودهْ

وقال ثالث:

وابــن ســــــوّارٍ على عِـــــــدَّاتـــــــــه

مـــــوقـــدُ النــــارِ وقتّـــالُ السَّغَبْ(١)

وعلى الرغم من استشهاد عبدالله بن سوار في القيقان، وهزيمة جيشه هناك، فإن عزائم المسلمين لم تفتر، بل تصاعد اهتمامهم في الجهاد ومواصلة الفتح. لذلك كتب معاوية رسالة إلى والي البصرة زياد بن أبي سفيان يقول فيها: أنظر رجـلاً يصلح لثغر السند فولّه. فكتب إليه: إنّ قِبَلِي رجلين يصلحان لذلك: الأحنف بن قيس، وسنان بن سلمة الهذلي، فكتب إليه معاويـة: بأي يـومي الأحنف نُكافيـه: أبخذلانـه أم المؤمنين؛ أم بسعيه علينـا يوم صفين؟ فوجّه سناناً(٢) وكان ذلك سنة ٤٨ هـ.

---

(١) العقد الثمين: ص١١٦.

(٢) ابن قتيبة: عيـون الأخبار، المجلد الأول، ج٣، الهيئة المصريـة العامة للكتـاب، ص٢٢٧. والمقصود بأم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر، وهي زوج الرسول الكريم، وكانت قد خرجت إلى العراق يوم الفتنة على عثمان رضي الله عنه. أما يوم صفين فالمراد به موقعة صفين سنة ٣٧ هـ، بين علي ومعاوية، وقد وقف الأحنف يومذاك إلى جانب علي.

ثم توجّـه سنان بن سلمة بن المحبّق الهذلي إلى ثغر السنـد، وكان فاضلاً متبـاهياً، وهو أول من أحلف الجند بالطلاق. فأتى الثغـر ففتح مكران عنوة ومصرّها، وأقام بها، وضبط البلاد. وفيه يقول الشاعر:

رأيتُ هـذيـلاً أحـدثتْ في يمينهـا
طَـلاق نسـاءٍ مـا يسـوقُ لها مهـرا
لَـهَانَ عليَّ حلْفِـةُ ابـنِ محبَّـقٍ
إذا رفعتْ أعنـاقُهـا حِلَقـاً صُفـرا

وقد فتح «قصدار» على بعد خمسة فـراسخ من قندابيل، إلا أن أهلها انتقضوا بعد ذلك. ثم ذهب إلى ناحية البدهة في الشمال، فغدر به أهلها، واستشهد(١).

وفي سنة ٤٩ هـ، استعمل زياد على ثغر السنـد راشد بن عمرو الجُديدي الأزدي، فأتى مكران، ثم غـزا القيقان فظفـر، وجبى أموال «كـوه بايه»، وسـاس العصاة والعتـاة الذين نقضوا العهد، واستمر في شن الغارات القويـة، وتوغل في بلاد السند، ثم «الميد»(٢)، وغنم غنائم عديدة، ثم رجع من هناك عن طريق سيستان، ولما وصل إلى جبل مندر، وبهروج من ناحية البدهة، خرج أهل تلك المناطق الجبلية، ومنعوا الطريق، وغدروا به فاستشهد.

ثم ولّى زيـاد في سنة ٥١ هـ، المنـذر بن الجارود العبـدي ثغر السنـد، فغـزا البوقـان والقيقان، وفتح قصـدار ثانيـة، وسبى بها، إلا أن أهلها انتقضوا. ومـات هو هنـاك، فقال الشاعر:

حـلّ بقصـدارَ فـأضحـى بها
في القبر لم يَقْفُـلْ مـعَ القـافلينْ

---

(١) فتوح البلدان: ص٤٢١.

(٢) الميـد: اسم منطقة تشرف على بحـر العرب، وبها قـوم يعرفـون بالميـد، وهم من كفار الهنـد، كانـوا يقطعون على المراكب البحرية. وجاء في العقد الثمين، ص١١٣: «إن الكفار في حدود بلاد السند، إنما هم «البدّة» قـوم يعرفـون بالميد. والميـد على شطوط مهران من حـد الملتان إلى البحـر، ولهم في البرية بين مهران وقامهل مراعٍ ومواطن كثيرة، ولهم عدد كبير». هذا ما ورد في الكتاب المذكور بالنص.

لله قصدارُ وأعنابهُا

أيَّ فتى دنيا أجنَّتْ ودينْ (١)

هذا وقد كان المنذر بن الجارود سيداً جواداً، لم يأته أحد من الناس إلا وصله.

وفي سنة ٥٦ هـ، تسلم عبيدالله بن زياد بن أبي سفيان ولاية البصرة، فأرسل أخاه عباد بن زياد إلى ثغر السند. فانطلق عباد من أرض سجستان، وغزا ناحية كش أو كجه (ويقال لها قصّه)، وقطع المفازة حتى أتى قُندهار، فقاتل أهلها، وهزمهم وفتحها. وكان معه في هذه الغزوة الشاعر الأموي المشهور يزيد بن المفرغ الحميري الذي قال فيها(٢):

كمْ بالجرومِ(٣)، وأرض الهند من قَدَمٍ

ومن سرابيلَ(٤) قتلى، لا هُمُ قُبِرُوا

بقندهارٍ، ومن تُكتبْ منيّتُهُ

بقُندهارٍ يُرجَّم(٥) دونه الخَبَرُ

وبقيت حملات المسلمين على السند مستمرة في عهد معاوية حتى وفاته سنة ٦٠ هـ، ثم تضاءلت من بعده، ولم يكن منها سوى حملة واحدة فقط، ثم تتوقف الحملات.

ففي خلافة يزيد بن معاوية (٦٠ – ٦٤ هـ)، جهز عبيدالله بن زياد بن أبي سفيان والي البصرة، جيشاً بعثه إلى السند بقيادة حَرّي بن حرّي الباهلي. فغزا هذا القائد جهة البوقان، وقاتل بها قتالاً شديداً، فظفر وغنم. وفي ذلك يقول الشاعر:

لولا طِعانيَ بالبوقان ما رجعتْ

منه سرايا ابن حَريٍّ بأسلابِ (٦)

(١) فتوح البلدان: ص٤٢١. والعقد الثمين: ص١١٩. والعالم الإسلامي في العصر الأموي: ص٣٥٦.

(٢) فتوح البلدان: ص٤٢٢.

(٣) الجروم: معناها الأجساد، ومفردها الجِرْم (بكسر الجيم وسكون الراء) ومعناه: الجسد.

(٤) سرابيل هنا كناية عن الرجال. ومفردها سربال: ومعناه اللغوي القميص، أو الدرع.

(٥) يُرجَّم: يغيب، أو يخفى.

(٦) فتوح البلدان: ص٤٢٣. والعقد الثمين: ص١٢١ و١٢٢.

وإلى هنا تكون قد حصلت تسع حملات إسلامية على بلاد السند، وكلها في زمن معاوية باستثناء الأخيرة منها، فقد كانت في عهد ابنه يزيد من بعده. وقد اعتنى بشأن هذه الحملات ثلاثة من الولاة المشهورين، وهم: عبدالله بن عامر بن كريز، وزياد بن أبي سفيان، وعبيد الله بن زياد بن أبي سفيان، وجميعهم تعاقبوا على ولاية البصرة، أي خَلَفَ أحدهم الآخر على الترتيب.

ومن ناحية أخرى فإن الذين قاموا بتنفيذ الأوامر والتوجه للفتح إنما هم قادة الحملات المذكورة وجنودهم، الذين ما فتئوا يطرقون أبواب السند، ويصيبون من أطرافها مما أدى إلى إسلام جموع كثيرة فيها، مع ازدياد في اتساع بلاد المسلمين.

عمال السند:

كان من جراء الغزوات السابقة أن خضعت بعض نواحي السند لحكم الخلافة الأموية، وصارت تعرف باسم «ولاية السند»، وتدخل في عداد سواد البصرة. فتعاقب على إدارة شؤونها، وتصريف أمورها عدد من العمال هم:

اسم الوالي	زمن الولاية	الخلافة
١ - عبدالرحمن بن سمرة بن حبيب القرشي	٤٢ هـ / ٦٦٢ م	في خلافة معاوية
٢ - عبدالله بن سوار العبدي	٤٣ - ٤٨ هـ / ٦٦٣ - ٦٦٨م	في خلافة معاوية
٣ - سنان بن سلمة الهذلي	٤٨ - ٤٩ هـ / ٦٦٨ - ٦٦٩م	في خلافة معاوية
٤ - راشد بن عمرو الجديدي الأزدي	٤٩ هـ وتوفي فيها / ٦٦٩م	في خلافة معاوية
٥ - المنذر بن الجارود العبدي	٥١ هـ / ٦٧١م	في خلافة معاوية
٦ - حريّ بن حريّ الباهلي	٦١ هـ / ٦٨١م	في خلافة يزيد ابن معاوية (١)

(١) موسوعة دول العالم الإسلامي، ج١، ص١١٩.

تعقيب :

ومما يسترعي الانتباه هنا أن مدة الفتح لثغر السند في خلافة معاوية، وابنه يزيد من بعده (من ٤٠ – ٦٤هـ)، كادت أن تصل خمساً وعشرين سنة، وهي تساوي نفس مدة الفتح لذلك الثغر في عصر الخلفاء الراشدين قبلهما (من ١٥ – ٤٠ هـ). وهذا من باب المصادفات، أو من قبيل التلاقي من غير موعد.

ثم إن عدد قادة فتح السند في عهد معاوية وابنه يزيد، كان ثمانية، وهم ضعف عدد القادة الذين تولوا فتحها في عصر صدر الإسلام قبلهم، وهم أربعة.

ومما يستحق الاهتمام أيضاً، أن هؤلاء القادة الاثني عشر، هم من أشراف المسلمين وأكابر العرب. وتصنيفهم بحسب المكانة على النحو الآتي:

١ – ستة منهم هم من الصحابة، واثنان من هؤلاء سمّاهما الرسول ﷺ. فمثلاً: سنان ابن سلمة الهذلي، الذي وُلد يوم فتح مكة كان يُسمى صخراً، فسمّاه الرسول عليه الصلاة والسلام سناناً. وأن عبدالرحمن بن سمرة بن حبيب القرشي كان يُسمى عبدكلال، أو عبدالكعبة، فسماه الرسول الكريم عبدالرحمن.

٢ – وأربعة منهم من التابعين، الذين صحب الواحد منهم صحابياً، أو التقى به .

٣ – والاثنان الباقيان كلاهما أدرك عصر النبي ﷺ.

وجميع هؤلاء القادة – دون استثناء – وردت أسماؤهم سابقاً في هذا البحث. وفي كتب السيرة، والمغازي، والطبقات، وغيرها من المصادر التاريخية والموسوعات ما يدل على مراتبهم هذه.

توقف حملات الفتح:

لقد جاء في الصفحات السابقة من هذا الفصل، ما يدل على أن سوق الجهاد الإسلامي كانت رائجة، وأن أفواج مقاتلي المسلمين كانت عارمة. حتى بدأت أبواب الفتح بالانفراج قليلاً، فظهرت منها تباشير الصبح الإسلامي.

ولكن في سنة ٦٤ هـ توفي الخليفة يزيد بن معاوية، فخلفه ولده معاوية بن يزيد في تلك السنة، وكانت ولايته أربعين يوماً، أو أقل منها. وبعد موته مباشرة دبّ الصراع الداخلي على الخلافة بين فريقين من المسلمين: الفريق الأول ينادي بعبدالله بن الزبير، والفريق

الآخر يـريد مروان بن الحكم (رأس الفـرع المرواني من بني أمية)، فوقعت بينهما معـركة مـرج راهط قرب دمشق في نفس السنــة، فـرجحت كفة مـروان فتـولى الخلافة في السنـة المذكورة، ثم مات في سنة ٦٥ هـ، وكانت ولايته عشرة شهور.

وفي هاتين السنتين ٦٤ هـــ و٦٥ هـ، كانت أحوال السنـد مضطربة وذلك لعـدم وجود وال قـوي عليها من جهـة، ولانشغـال المسلمين بأمر الخلافـة من جهـة أخرى، ممـا أدى ببعض المنافسين الطـامعين هناك إلى التطلع للسيطرة والاستقلال عن الخلافـة. فظهر على المسرح معاوية العلافيّ(١). وغلب على السند ضد الأمـويين. فكان أول وهن أصاب الوجود الإسلامي الناشيء في السند.

وهكذا تتـوقف حملات الفتح، وتنقطع صلة السند بـالخلافة الأموية، وتغيب أخبـارها عن مسرح التـاريخ الإسلامي عشر سنـوات بكـاملها، إلى حين قـدوم الحجاج بن يـوسف الثقفي والياً على العراق سنة ٧٥ هـ. وهنا بدأت تنقلب الموازين.

خلافة عبدالملك بن مروان (٦٦ - ٨٦ هـ):

عبدالملك بن مـروان يُقال لـه أبو الملوك، لأن أربعـة من أبنائه (وهم الـوليد، وسليمان، ويزيد، وهشـام)، تولوا الملك أو الخلافة من بعده.

مدة خلافته : ولي عبدالملك في سنـة ٦٦ هـ، ومـات في سنة ٨٦ هـــ، وكانت خـلافته عشرين سنة. وهي مدة تزيد عن أية مدة قضاها أي خليفة في الحكم قبله، منذ عصر الخلفاء الراشـدين إلى حين توليه الخلافـة، باستثناء معـاوية بن أبي سفيـان الذي كانت خـلافته عشرين سنة، فتعادل اللاحق مع السابق.

رجالات عصره : عندمـا جاء عبـدالملك إلى سدة الخلافـة عمد إلى استخـلاص بعض الرجـال الذين يـركن إليهم للعمل معه على تثبيت قواعـد حكمه، والسيطـرة على الأوضـاع الداخلية التي كان يشـوبها كثير من الفوضـى والقلق والاضطراب. ولهذا استعمل روح بن زنباع وزيـراً له، وقائداً لشرطتـه، ونقل عبدالرحمن بن عبـدالله الثقفي من ولاية الكـوفة، وجاء به والياً على دمشق، وجعله نائباً عنه في دار الخلافة في بعض الأمور.

---

(١) فتوح البلدان: ص٤٢٣. والعقد الثمين: ص١٤٤. وفتح السند «ججنامة»: ص٨٥.

وإلى هنا يبدو أن عبدالملك لم يستكمل تحقيق ما كان يهدف إليه من استقرار. فالأوضاع كما هي، حيث انكفأ الناس عنه، وصاروا لا يرحلون برحيله، ولا ينزلون بنزوله، وبقي العساكر على حال من الفوضى، وعدم التماسك والانضباط. وهكذا صارت المسألة تحتاج إلى رجل قوي حازم يعيد الأمور إلى نصابها. فمن يكون هذا الرجل؟ وهل هو معروف لدى الخليفة، أم مجهول؟

وفي هذا الصدد يقول ابن عبد ربه: شكا عبدالملك ما رأى من انحلال العسكر، وأن الناس لا يرحلون برحيله، ولا ينزلون بنزوله. فقال روح بن زنباع: يا أمير المؤمنين: إن في شرطتي رجلاً لو قلّده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله، وأنزلهم بنزوله. يُقال له الحجاج بن يوسف الثقفي(١). وكأن الحجاج كان على موعد مع هذا. فتأتيه الرئاسة بعد أن وقف بحزم وعنف في وجه المتقاعسين عن القتال، فإذا هو أمير عسكر الخليفة.

ومن الآن بدأ نجم الحجاج في الصعود، وسيبقى كذلك إلى حين وفاته سنة ٩٥ هـ، مما سيجعل تاريخ بني مروان مقترناً به، أو تاريخه مقترناً بهم. وكل من القولين صحيح.

معاوية العلافي وغلبته على السند:

في سنة ٦٥ هـ (أي قبل تولي عبدالملك بعام واحد)، غلب معاوية بن الحارث العلافي على السند، وبقي متغلباً عليها طوال عشر سنوات، وكان في مرج مكران. وجاء عليه وقت أن اتخذ من مكران قاعدة له، وأصبح سيداً عليها، وحاكماً لها ولما حولها. وكان معه أخوه محمد بن الحارث العلافي(٢).

وفيما يتعلق بنسب هذين الرجلين فعلى الأرجح أنهما من بني قضاعة، كما ذكر البلاذري، وابن حزم، وابن الأثير، وابن خلدون.

وعلى أية حال، فهذان العلافيان - على ما يبدو - هما أول جرثومة ظهرت في السند ضد الخلافة الأموية. وقد لحق بهما جماعة من أهل عمان، منهم سفهوي بن لام الحمامي، وهو من قبيلة الأزد. وأغلب الظن أنه كان يتولى شأن بعض النواحي لمعاوية العلافي، لأن تسلسل الأحداث اللاحقة يشير إلى هذا. وسيأتي الحديث عنه بعد قليل.

---

(١) العقد الفريد: ج٥، ص٢٧٥.

(٢) فتوح البلدان: ص٤٢٣. والعقد الثمين: ص١٤٤. وفتح السند «ججنامة»: ص٨٥.

قدوم الحجاج والياً على العراق:

في سنة ٧٥ هـ أسند عبدالملك بن مروان ولاية العراق إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، ثم في سنة ٧٨ هـ ضمّ إليه خراسان وسجستان والشرق كله بما فيه الهند والسند. وكان الحجاج سيف بني مروان، وبذل كل جهوده لتوطيد دعائم الدولة الأموية. وكانت له اليد الطولى في توجيه الولاة، وحملات الفتح إلى بلاد السند من جديد. ومن الآن فصاعداً سوف تظهر شخصية الحجاج على مسرح الأحداث أكثر من مرة.

عودة الولاة إلى السند:

عندما تسلّم الحجاج زمام الأمور بعث سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي والياً على مكران وثغر السند. ولما وصل سعيد إلى مقربة من مكران، وجد سفهوي بن لام الحمامي، فقال له سعيد: أريد أن تساعدني وتأتي معي إلى مكران. فأجابه سفهوي: ليس عندي أمر بذلك (أي من العلافيين)، فقال سعيد: سأكتب للخلافة بهذا الشأن، فقال سفهوي: والله لن أعمل معك أبداً، وأعدّه عاراً عليّ، فأخذه سعيد وقتله، وبعث برأسه إلى الحجاج. وبعد ذلك مضى سعيد إلى مكران، وساس البلاد، وجمع الأموال، ثم أتى إلى المرج لجباية الخراج، فخرج إليه العلافيان: معاوية ومحمد ابنا الحارث، ومعهما كُليب بن خلف العماني، وقالوا له: إن سفهوي بن لام من مدينتنا عمان وهو قريبنا، فكيف يحق لك أن تقتله؟ واحتدم النقاش والجدل حتى انتهى إلى القتال، فحملوا على سعيد وقتلوه، ودُفن هناك.

وكان سعيد بن أسلم رجلاً كريماً، وفارساً شجاعاً. وبعد قتله رثاه الفرزدق، حيث يقول:

سقى الله قبراً من سعيد تضمّنتْ
نواحيه أكفاناً عليك ثيابُها
وحفرةُ بيتٍ أنت فيها مُوسَّدٌ
وقد سُدَّ من دون العوائدِ بابُها
لقد ضمّنتْ أرضٌ بمكرانَ سيّداً
كريماً إذا الأنواءُ خفَّ سحابُها

شـــديـــداً على الأدنيـْــنِ منك إذا احتــوى
عليـك من التُّرْبِ الهيـــامَ حِجابُـــــها

لِتَبْكِ سعيـــــداً مُــــرضعٌ أمُّ خمســـة
يتـــامى ومـن صرف القـــراح شرابُـــها

إذا ذكــــرتْ عينـي سعيـــــداً تجددّتْ
لها عبراتٌ يستهِلُّ انسكابُــــــــها (١)

ولما وصل خبر قتل سعيد إلى الحجـاج، غضب على جماعة رجال سعيـد.وقال لهم: أين أميركم؟ فأجابوه: إن العلافيين غدروا به واغتالوه، فأمر الحجاج واحداً من أتباعه من بني كلاب أن يذهب ليقتل معاوية العلافي، ويرسل برأسه إلى أهل سعيد(٢).

وبعد قتل سعيد بن أسلم، وسيطرة العــلافيين على مكران، أرسل الحجاج، مُـجَّاعة بن سعر التميمي واليـاً على ثغر السند الثـائر على الخلافة، والمتمرد على النظـام، وأمره بطلب العلافيين، فهربوا قبل وصوله إلى مكران، واحتموا بالملك داهر بن جج ملك السند.

وكان مجاعة رجلاً شجاعاً، يتلظّى حبّاً للغـزو، ويكتوي شوقاً إلى الجهاد في سبيل الله. فلما وصل إلى مكران، غزا، وفتح بعض النواحي مـن قندابيل، وحصل على الغنائم. وكانت له شواهد محمودة في الغزوة. وفيه يقول الشاعر:

مـــا مِـنْ مَشـــاهِـــدكَ التـي شاهدتَّـــها
إلاّ يــــزينُكَ ذكـــرُهَـــا مُـــجَّاعا(٣)

ومع ذلك لم تدم إقامة مجاعة بمكران طويلاً، حيث أنه مات بعد سنة من وصوله إليها، وذلك سنة ٧٩ هـ.

ولما قضى مجاعـة التميمي نحبـه، بعث الحجـاج مباشرة، محمـد بن هــارون بن ذراع النميري والياً على السند، وأعطاه كامل الاختيار في الأوامر والنواهي.

---

(١) فتح السند «ججنامة): ص٨٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٨٦.

(٣) فتوح البلدان: ص٤٢٣.

قتل معاوية العلافي:

كان الحجاج عندما أرسل محمد بن هارون إلى السند، أوصاه قائلاً: حاول جهدك أن تقبض على العلافييْن أينما كانا، وتأخذ بثأر سعيد بن أسلم الكلابي. وتسير عجلة الزمن إلى الأمام. ففي سنة ٨٦ هـ، تمكن محمد بن هارون من القبض على أحد العلافيين، وهو معاوية، وبحسب وصية الحجاج فإنه قتله، وأرسل رأسه إلى الحجاج، وبعث برسالة له قائلاً فيها: إنني نجحت في القبض على أحد العلافيين، وقطعت رأسه. وإذا واتاني الحظ فإنني سوف أتتبع الآخرين، وأُرسل لك رؤوسهم(١).

واستمرت ولاية محمد بن هارون على السند عشر سنوات (من ٧٩ - ٨٩ هـ). وهذه المدة هي أطول مما قضاه أيٌّ من الولاة الذين سبقوه. أو بمعنى آخر إنه بقي والياً على السند حتى سنة ٨٩ هـ، ليلتقي بمحمد بن القاسم الثقفي في مكران، ثم يسير معه إلى ميادين الجهاد.

خلافة الوليد بن عبدالملك (٨٦ - ٩٦ هـ):

الوليد هو أول أبناء عبدالملك بن مروان، الذين تسلَّموا مقاليد الخلافة بعد أبيهم. وقد أنجب الوليد عدداً كثيراً من الأولاد، وجميعهم عُرفوا بالفضل. وفيهم يقول جرير:

وبنو الوليدِ من الوليد بمنزلٍ
كالبدرِ حُفَّ بِواضِحاتِ الأنجمِ(٢)

خلافته : تولى الوليد بن عبدالملك بن مروان في سنة ٨٦ هـ، وتوفي في سنة ٩٦ هـ، وكانت ولايته عشر سنين. وهكذا كانت مدة خلافته تعادل نصف مدة خلافة أبيه (عبدالملك) قبله.

وفي أيام الوليد بقي الحجاج أميراً على العراق والشرق كله، ومشرفاً على السند. وكان أوصى به عبدالملك خيراً حين أوصى بنيه، فقال: أكرموا الحجاج، فإنه الذي وطّأ لكم المنابر، ودوَّخ البلاد، وأذلّ الأعداء(٣).

---

(١) فتح السند «ججنامة»: ص٨٨.

(٢) العقد الفريد: ج٥، ص١٧٠.

(٣) العقد الثمين: ص١٧١.

خصوصية عصره: يُعد عصر الوليد بن عبدالملك - بحق - عصر التوسّع في الفتوحات الإسلامية وامتدادهـا. ففي عهده توجهت الجيوش النظاميـةً للفتوح خارج ديار المسلمين: شرقاً، وغـرباً، وشمالاً. واشتهـر في زمنه ستة قُـوّاد عظام، كـان لهم أجمل الأثر في الفتح الإسلامي المجيد، ورفرفت فوق هاماتهم رايات الفوزٍ والنصر.

فهذا محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند. (وهو موضوع هذا البحث).

وذاك قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح سمرقند وماوراء نهر جيحون حتى الصين.

وذلك مسلمـة بن عبدالملك (أخـو الوليـد) فـاتح أرمينية وبـلاد الروم حتى مشـارف القسطنطينية.

وأولئك الثلاثـة: طارق بن زيـاد، وموسى بن نصير، وابنه عبـدالعزيـز بن موسى بن نصير، فاتحو بلاد الأندلس.

وكان من نتائج هذه الفتوحات أن انتشر الإسـلام في تلك البلاد المفتوحة، واتسعت ديار العالم الإسلامي، وكسبت الخلافـة موارد جديدة، وصارت حدود ولايـاتها آمنة. وفي هذا الشأن يقول جرير في مدح الخليفة الوليد بن عبدالملك:

وأرضَ هِـرَقْلٍ قـد قهـرتَ وداهـرٍ
وتسعى لكـم من آل كسرى النّـواصفُ(١)
وأدَّتْ إليك الهنـدُ مـا في حصـونها
ومن أرض صينستـانَ يجُبـى الطـرائفُ (٢)

الأسباب المباشرة لفتح السند:

يختلف المؤرخون والبـاحثون في ذكر السبب المباشر الـذي أدى إلى فتحَ السند. ولهم في هذا المجـال روايات وأقوال واجتهادات. ونحـاول أن نوردها بـاختصار، مع تعليق بسيط عليها، واستخلاص نتائجها، وما ترتب عليها، لمتابعة عملية الفتح.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٧٢. أما النواصف فمعناها: نصف ما يجُبى من المال.

(٢) صينستـان: اسم مركب من كلمتين: صين وستـان، بمعنى: بـلاد الصين، لأن ستان معنـاها: بـلاد. والطرائف مفردها طريف، ومعناه: المستفاد من المال حديثاً.

فالبـلاذري يذكـر أن نسوة مـن العرب المسلمين ولـدن في جزيـرة سيلان، أو جـزيرة الياقـوت، ومات عنهن آباؤهن، وكـانوا تجاراً، فأراد ملك تلك الجزيـرة أن يتقرب بهن إلى الحجاج فيهديهن إليه. فأرسلهن في سفينة إلى البصرة. فعـرض للسفينة التي كنّ فيها قوم من ميـد الديبل في بـوارج، فأخذوا السفينـة فيما فيها، فنـادت امرأة منهن كـانت من بني يـربوع: يـا حجاج! وبلغ الحجـاج ذلك، فقـال: يا لبيك، فأرسل إلى «داهـر» يسأله تخلية النسوة، فقـال إنما أخذهن لصوص لا أقـدر عليهم(١). فكان ذلك سبباً أدى بـالحجاج إلى تسيير جيش نظامي لفتح السند، وبإقرار من الخليفة الوليد بن عبدالملك نفسه.

ويتفق مع البـلاذري في هذا السبب أيضـاً، علي بن حامـد الكوفي، الـذي توسع في تـوضيح السبب المذكور، وأضاف إليه أن المهاجمين يقال لهم «نكامرة»(٢). ثم يروي وصفاً للمرأة التي صاحت بأعلى صوتها يا حجاج، على نحو يستهوي به عواطف القراء قبل أن يمتلك عقولهم.

والحكايـة أن بعض التجار من مـدينة الـديبل وعدداً من الـذين فرّوا من تلـك السفينة جـاءوا إلى الحجاج، وذكـروا لـه ما حصل، مع استغـاثـة تلك المرأة. فقال الحجـاج: لبيكِ لبيكِ(٣).

ونتجه الآن إلى «دائرة المعـارف الإسـلامية»(٤)، حيث تذكـر لنا سبباً آخر هـذا نصه: أغار محمد بن القاسم على السند بأمر من الخليفة الوليد رداً على المعاملة السيئة التي لقيها بعض التجار المسلمين، وإخفاقهم في الحصول على ترضية تحفظ كرامتهم.

ثم ننتقل إلى معـرفة أسبـاب أخرى لفتح السند، جـاءت في تلك المقالات والمؤلفـات التي كتبها بعض الأسـاتذة الباحثين في هذا العصر.

فالباحث الهندي الدكتور «تاراشند» له بحث عن «كيفية وصول المسلمين إلى الهند»(٥) يقـول فيه: إن سبـب الحملة هـو هجـرة جماعة إلى السنـد من بني هـاشم فـراراً من ظلم

(١) فتوح البلدان: ص٤٢٣.

(٢) كلمة «نكامرة» تعني: جماعة من شذاذ الآفاق ولصوص البحر شغلت دوراً كبيراً في تاريخ السند.

(٣) فتح السند «ججنامه»: ص٩٠.

(٤) المجلد الثاني عشر، ص٢٥٦.

(٥) مجلة «ثقافة الهند»، مارس (آذار) سنة ١٩٥٠م. وتاريخ الإسلام في الهند: ص١٠٤.

الحجاج وعسفه بالعراق. فكتب الحجاج إلى ملك السند يطلب منه تسليم الفارين، ولكنه لم يظفر بما يريد، فقرر الحجاج أن ينتقم من ملك السند.

أما الدكتور عبدالعزيز سليمان نوار في كتابه «الشعوب الإسلامية»(١)، فيقول: وكانت الفتوحات الإسلامية إلى الهند بقيادة محمد بن القاسم الذي وضع - لفترة من الزمن - إقليم السند تحت الحكم الإسلامي. ثم يفسر ذلك بعبارة هذا نصها: يُقال إنه من أسباب تلك الحرب أن قراصنة هنوداً كانوا يفتكون بسفن العرب المتجهة إلى الحجاز، كما أن بعض البراهمة أمدّوا الفرس ضد العرب، وحمى البراهمة من كان يلجأ إليهم من فارس.

وأخيراً، وليس آخراً، نصل إلى معرفة رأي الدكتور نبيه عاقل الذي أثبته في كتابه «خلافة بني أمية»(٢)، حيث يقول: إن فتح الديبل عند البلاذري مرتبط بسبب ساذج. وعندنا أن هذه القصة التي يطبعها طابع الأسطورة وعدم الوضوح لا يكون سبباً كافياً لتبرير عملية الفتح. ثم نجده يبدي رأيه على نحو جديد بقوله: وأغلب الظن أن فتح السند هو جزء من خطة الدولة زمن الوليد بن عبدالملك في مدّ رقعة الفتوح، تحقيقاً لنشر الإسلام على أوسع مدى، ولتأمين الحدود الشرقية للدولة من هجمات تقوم بها الأقوام القاطنة هناك. هذا فضلاً عن تأمين موارد إضافية حققتها معاهدات الصلح التي عقدت معهم.

والخلاصة أنه لا تناقض بين كل هذه الأسباب. فقد يصحّ أن يكون كل واحد منها قد حدث بالفعل. وكلها تؤكد على موقف العناد الذي اتخذه الملك داهر على عدائه للمسلمين، ومقاومته لهم، بالإضافة إلى استخفافه بالحجاج وتهديده له، وعدم الاستجابة لطلبه. ومع ذلك تبقى حكاية الاعتداء على النسوة المسلمات هي من أقوى الأسباب المباشرة لفتح السند، وأكثرها رواجاً وشيوعاً في المصادر التاريخية القديمة.

ولكن لا ننسى أن البواعث الأساسية للفتح كانت موجودة أصلاً. وأن الحملات العسكرية على السند كانت موجودة سابقاً، وهي وإن توقفت بعض الوقت، إلا أنها قد استؤنفت، وأخذت في التصاعد - كما سنذكر بعد قليل - وذلك قبل حدوث أي سبب من تلك الأسباب المباشرة.

---

(١) دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٣م، ص٥٠٥.

(٢) ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٥م، ص١٠٦.

وعلى أيـة حال فإن الحجـاج قد أرسل عبيـدالله بن نبهان السلمي على رأس فـوج من المقاتلين لغزو الـديبل، وتقابل الجمعان، فاستشـهـد هذا القائد. ثم استدعـى الحجاج قائداً جديداً من عمان يسمى بُديل بن طهفة البجلي، وأمره بغزو الديبل مرة أخرى. فتوجه بديل على رأس ثلاثمائة رجل من المقاتلين الأشداء إلى مكران، وكـانت قد سبقته إلى هناك رسالة بعث بها الحجاج إلى محمـد بن هارون والي مكران يأمـره فيها بتجهيز ثلاثـة آلاف مقاتل للغرض نفسه. فانضم هؤلاء المقاتلون إلى بديل، وسار بهم مع رجاله إلى الديبل لمقاتلة جي سيه بن داهر وجيشه. فالتقى الجمعان، ودارت الحرب بينهما من الصباح إلى المساء، خسر فيها العـدو ثمانين قتيلاً. وكانت فـرس بديل تخشى رؤية الفيلـة، فنفرت به، فأطـاف به العدو حتى تمكنوا منه فسقط شهيداً، وذلك في سنـة ٨٩ هـ. ولما سمع الحجاج باستشهاد بديل حزن حزناً شديداً، واستعد لأخذ ثأره(١).

ويقال: لما قُتل بديـل خاف أهل حصن بيرون، من أن يثأر العرب لمقتله، وقـالوا لابد أن يجتمع المسلمـون بعـد قتل بـديل ونحن على ممـرّهـم (طـريقهـم)، فمن الأفضل أن نسترضيهم، ونُزيـل غضبهم. واتفقوا على أن يذهـب السمين(٢) «سندر» والي البيرون إلى الحجـاج، ويعتذر لـه عما حصل، ويطلب الأمـان والعهد الـوثيق، وأنهم سـوف يقدمـون الديات والأمـوال. وارتاح الحجاج لهذه البادرة، وأصدر لهم وثيقة العهـد والأمان، وقال: اعملوا شيئـاً حتى تخلصوا أسرانـا من يد الكفـار، ولابد من خضـوع المنطقة حتى الصين للإسلام(٣).

ومن هنا صارت الأسباب بمختلف أنواعهـا تفرض على الحجاج أن يرسل جيشاً كبيراً يؤدب به الأعداء، ويثأر لبديلٍ، ويسترد كرامة تلك المرأة المسلمة التي استغاثت به، ويحقق طموح الأمة للفوز بالفتح المبين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾(٤).

---

(١) فتح السند «ججنامنة» : ص٩٢.

(٢) بالعـربية : السمين: ضد الغث. وكـلام سمين معناه: رصين حكيم. وسمين وسمني، معنـاه: الناسك الهندي، أو الـراهب. والسمنيون أو السمينس: الـرهبان الهنـود. والسمينة: طـائفة الـرهبان. المعجم الوجيز، مادة «سمن».

(٣) فتح السند «ججنامة»: ص٩٣.

(٤) سورة الفتح: الآية١.

ومادام الأمر هكذا، فمن هو ذلك القائد الـذي سيختاره الحجاج لهذا الجيش للتوجه به إلى فتح السند بأكملها؟

محمد بن القاسم القائد الفاتح:

إنه شـاب شجاع، وصريح في قـول الحق، ويستجيب لنـداء المستغيث به. وهـو فارس مقدام يهوى ركـوب الصعاب، ولو على أطـراف الرمـاح. ولقد عرفـه الحجاج - كما سبق القول - وشهـد له بـالبطولـة، فاختـاره قائداً لهذا الجيش الـذي هو على أهبـة الاستعداد للذهاب إلى فتح بلاد السند.

مسألة تقدير سنّه:

كان محمـد بن القاســم الثقفي في السابعـة عشرة من عمره عنـدما تولى قيـادة الجيش المذكور. وفي هذه الحالة قال الشاعر حمزة بن بيض الحنفي:

إن المروءة والسماحـــــــــــةَ والنهـى

لمحمــــد بـن القــــاسـم بـن محمــــدِ

قـــاد الجيـــوشَ لسبـعَ عشرةَ حجـــةً

يــا قـــربَ ذلك ســؤدداً من مـــولـدِ (١)

وقال شاعر آخر:

ســـاسَ الـــرجـــالَ لسبْعَ عشرة حجـــةً

ولـــــداتُـــــه عـن ذاك في أشغــــالِ(٢)

ومن هنا تـولد الشك عنـد بعض المؤرخين والباحثين في مسألة تقـدير سن هـذا القائد يومـذاك. كما حصلت الريبـة لديهم في صدق الأبيـات المذكورة. ومن هـؤلاء من يستدرك قائلاً: بيد أنه ليس من الحق في شيء أن نغض عنها النظر بمجرد كوننا لا نستطيع أن نتخيل فتىً في السابعة عشرة من عمره يقود جيشاً عظيماً بفكر ثاقب، وجنان ثابت(٣).

---

(١) فتوح البلدان: ص٤٢٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٢٨.

(٣) محمد عالم الأفغاني: مجلة المنهل، السنة الثالثة، المجلد الثالث، أكتوبر ١٩٣٩م، ص٢٧.

وتعقيباً على هــذه المسألة من جميع نواحيها، فإننــا لا نستهجن صحة تقدير عمــر هذا القائد، ولا نستغربها. والدليل أن الشاعــر حمزة بن بيض الحنفي كان معاصراً لهذا القائد، «فكتب هذين البيتين في تهنئتــه بهذا المنصب». ثم إنه قد حصل في التــاريخ ما يؤيد ســلامة ذلك التقدير. حيث برز في مــراحل زمنية متباعدة عدد من القادة العظام الــذين كان الواحد منهم دون العشرين من عمره أو أكثر بقليل. وهــم جميعاً كانوا منارات شامخة في أوطانهم، بل إن بعضـهم قد غيّــر وجه التاريخ. والأمثلة على ذلك موجودة.

فلننظر في حقائق التاريخ الإسلامي أولاً، فنقول:

أليس من المعــروف أن أســامة بن زيــد، كــان دون العشرين من عمــره، عنــدما جعلــه الرسول ﷺ، واحداً من قادة السرايا والبعــوث الإسلامية؟ حيث أوكل إليه سرية إلى «يُبْنَه، وأسدود» بفلسطين في سنة ١٠ هــ؟ وبعدهــا ولاه جيشاً إلى «البلقاء» في الأردن في سنة ١١ هــ، وهو آخر البعوث في عهد الرسول الكريم؟(١).

ثم، ألا نجد أن عثمان بن أبي العاصي الثقفي، قــد أمرّه الرسول عليــه الصلاة والسلام، على الطائف، وهو غلام؟ وعلى الرغم من حداثة سنّــه فقد كان أحرص بني قومه على التفقه في الدين؟ وأنه كان سبب إمساك ثقيف عن الردة؟(٢).

وأيضاً ألم يكن السلطان محمد الفاتح في الثــالثة والعشرين من سني عمره، عندما فتح القسطنطينية في سنة ١٤٥٣م؟(٣).

وثانياً فلنقرأ في تاريخ الأمم الأخرى، لنقول ما يلي:

ألم يهزم الإسكنــدر المقدوني خصمــه داريوس الثــالث ملك الفــرس، وهو لم يتجــاوز العشرين من عمره؟ وكذلك ألم تتمكن تلك الفتاة الفــرنسية «جان دارك» من دحر الإنجليز من فرنسا وطردهم؟ فأعادت الكرامة لبلادها، وقامت بتتويج شارل السابع ملكاً، وهي في الثامنة عشرة من عمرها؟(٤).

---

(١) موسوعة دول العالم الإسلامي، ج١، ص٣٣.

(٢) الطبقات الكبرى: المجلد الأول، ص٣١٣، وجمهرة أنساب العرب: ج١، ص٢٦٦.

(٣) مجلة المنهل، السنة الثالثة، المجلد الثالث، ص٢٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٢٨.

إذاً فليس غريباً أن يكون عمر قائدنا محمد بن القاسم سبعة عشر عاماً، حينما تولى قيادة الحملة التي انعقدت عليها الآمال بفتح السند.

تجهيزات حملة الفتح :

شرع الحجاج في إعداد هذا الجيش الكبير الذي قارب خمسة عشر ألفاً من الجنود، وجهزه بكل ما يحتاج إليه من العتاد والسلاح والمؤونة. كما طلب من الخليفة الوليد بن عبدالملك أن يزوده أيضاً بستة آلاف مقاتل من أبناء الشام مع كامل أسلحتهم ليتشرفوا بالقتال في سبيل الله. ثم أرسل إلى القائد محمد بن القاسم في فارس يأمره بالقدوم إليه لتنصيبه قائداً عاماً للجيش، وليبحث وإياه في شأن الحملة، ورسم الخطط العسكرية، وتقسيمات الجيش، وما يلزم ذلك من حاجات أخرى، قد تستوجبها الضرورة في ساحات القتال بعيداً عن مراكز القيادة، وعن مستودعات الذخيرة، وعنابر التموين.

وقد بلغ من حرص الحجاج على تدبير شؤون الجيش أنه لم يغفل عن أية أداة صغيرة قد تلزم، حتى الخيوط والمسالّ والأبر يرتقون بها الثياب والجوالق، ويخرزون بها القِرَبَ والنعال. ولا سيما أنهم سيقطعون مناطق جبلية صعبة، ويجتازون شعاباً كثيرة متعرجة، تكون فيها ثيابهم، وسائر أوعية تموينهم عرضة للفتق، أو الثقب، أو التمزق. كما أمر الخياطين بصنع أغطية على شكل رؤوس الفيلة والسباع، حتى يلبسها أفراد الجيش ليرهبوا الأعداء.

ومما هو أعجب من هذا أن يفطن الحجاج إلى تزويد الجيش بما يحتاج إليه من الخَلِّ في طعامهم، وهو مما يثقل حمله في القرب أو الدنان على ظهور الإبل، أو غيرها من الدواب. ولكن كيف السبيل إلى جمعه ونقله في غير مشقة من الأحمال الثقيلة؟ لقد فكّر الحجاج في وسيلة أخرى، فعمد إلى القطن المحلوج فَنُقِعَ في الخل الحاذق حتى تشبّع. ثم تُرك في الظل حتى يجفّ دون أن يتبخر. وبعد ذلك أمر أتباعه بجمعه وربطه مع الأحمال وهويذكر قول الرسول ﷺ: «نعم الإدامُ الخَلُّ»(١).

---

(١) فتح السند «ججنامة»: ص١٤٧. والإدام: الطعام يؤكل مع الخبز. / المعجم الوجيز مادة «أَدَمَ».

وقد قال الحجاج لأفراد الجيش: إذا صرتم إلى السند، فإن الخلّ بها ضيّق (أي قليل)، فانقعوا هذا القطن في الماء، ثم اطبخوا به، واصطبغوا(١).

وكانت لهذا الجيش قوتان: قوة برية عمادها المشاة والفرسان، وقوة بحرية قوامها السفن الحربية التي سارت تحمل البحارة والعتاد والمؤونة، والسهام والرماح، والآلات الثقيلة المهيأة لحصار القلاع والحصون، وفيها المجانيق الضخمة التي تقذف بالقذائف فتدكّ كل شامخ. وكان على رأس هذه القوة البحرية ابن المغيرة، وخُريم بن عمرو المرّي، وذلك بأمر من الحجاج نفسه(٢).

وهذا العمل على هذا المنوال، وفي مثل هذه الصورة، يدل على جهود فائقة في تكوين جيش قوي يتولى تطبيق خطة استراتيجية مدروسة بدقة متناهية.

وبعد تدبير الأمور، واستكمال الخطط والتجهيزات، وقف الحجاج في يوم جمعة يخطب في هؤلاء المقاتلين قائلاً: إن الأيام ذاتُ دُول، والحربُ سجالٌ يومٌ علينا ويومٌ لنا، فعلينا أن نصمدَ في اليوم الذي هو علينا، ونشكرَ الباريَ عز وجل في اليوم الذي هو لنا، حتى يزيد الله النعمة علينا، وعلينا دائماً أن نذكر الله عز وجل ونشكره على نعمائه وآلائه، وأن نِعَمَ الله أبوابها مفتوحة لنا، ولن يغلق أي باب بوجهنا مادمنا مع الله وفي سبيل الله. وما زَال فراق بُديل يحزّ في نفوسنا، ويستصرخ ثأرنا(٣).

ولما أنهى الحجاج خطبته، أمر محمد بن القاسم بالتحرك لغزو السند، وبارك له غزوه وسفره. وأنشد الأبيات التالية في بديل بن طهفة البجلي:

---

(١) اصطبغوا بالخل: أي ضعوه على طعامكم، أو لوّنوا به خبزكم. والصِّبغ: ما يؤتدم به كالزيت من شجرة الزيتون، والخل من عصير العنب. قال تعالى: «وشجرة تخرج من طور سيناءتنبت بالدُّهن وصبغ للآكلين». (سورة المؤمنون: الآية ٢٠). والمعنى: شجرةً الزيتون التي تُنبت الدهن (أي الزيت) الذيَ فيه منافع عظيمة. وصبغ للآكلين: أي وإدام للآكلين، سُمّي صبغاً، لأنه يصبغ اللقمة بغمسها فيه، أو يلوّن الخبز إذا غمس فيها. وقد جمع اللّه في هذه الشجرة المَباركة بين الأدم والدهن. وفي الحديث الشريف: «كلوا الزيت، وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة». صفوة التفاسير: المجلد الثاني، ص٣٠٥، وتفسير الجلالين: ص٤٥٣.

(٢) العقد الثمين: ص١٨٢.

(٣) فتح السند «ججنامة»: ص٩٦.

دعـــا الحجـــاجَ فـــارسُـــه بُـــدَيْلُ

وقـــد مـــال العـــدو على بُـــديلِ

وشمّـــــر ذيْلَـــهُ(١) الحجـــاجُ لمّا

دعـــــاهُ أنْ يشمّـــــره بـــــذيـلِ

فَـــــدَيْتُ المالَ للغـــــارات حَـــــثْواً

بِـــــلا عَـــــدٍّ يُعَـــــدُّ ولا بِكَيْـلِ(٢)

ثم قال لمحمد بن القاسم: أُخرج عن طريق شيراز، واطوِ المنازل واحداً تلو الآخر. وهكذا سار.

خط سير الفتح:

سار محمد بن القاسم إلى شيراز، وانتظر هناك حتى تصل إليه المساعدات من الحجاج، وهي: جنود الشام، ومعهم تلك الجمال التي تحمل العتاد والمؤن. وكان مع هذه المساعدات رسالة من الحجاج لابـن القاسم يقول فيها: لقد تم تجهيزكم بكل مـا تحتاجونه، وعلى كل أربعة فرسان أن يضعوا أحمالهم على جمل واحد، وعليكم أن لا تزيدوا الأثقال على الجمل، وراقبوا الله في ذلك، واصبروا وصـابروا، وإذا وصلتم إلى بلاد الأعداء فانـزلوا في صحراء «هامون»، وعندمـا يحين القتال تفرقوا على شكل أفواج واخرجـوا من الأطراف، لأن حرب الفيلة لها خصوصيات خاصة بها، وعنـدما يحمل الأعداء عليكم قفوا في مكانكم، وارموهم بوابل من السهام(٣).

وبعد أن وصلت تلك المساعدات اتجه القائد محمـد بن القاسم بجيشه عن طريق جنوب فارس بمحاذاة ساحل بحر العرب قاصداً مدينة مكران التي هي آخر مدينة في جهة المشرق تتبع ســواد العراق. ولما وصل، استقبلـه محمد بن هـارون النميري والي مكران يـومذاك، وأقام عنده بضعة أيام، ثم شرع في الانطلاق.

---

(١) شمّر في الأمر: خفّ ونهض. وشمـر للأمر: تهيّأ. وشمّر ثوبـه: رفعه عن ساعديه أو سـاقيه. والذيل هنا: أسفل الثوب.

(٢) العقد الثمين: ص١٥٠. ومعنى حثا: إنهالَ.

(٣) فتح السند «جچنامه»: ص٩٨.

قنزبور وأرمائيل: تحرك محمد بن القاسم بجيشه إل مدينة «قنزبور» ففتحها دون كبير مشقة أو عناء، ثم توجه إلى مدينة «أرمائيل» عبر طريق طويل. وحين وصوله إليها غزاها، فلقي فيها مقاومة ليست هيّنة، لكنها لم تَقْوَ على شجاعة جيشه، وسرعة زحفه، وضراوة قتاله، فسلّمت المدينة.

وفتحُ هاتين المدينتين يحمل أكثر من دلالة. فعلى سبيل المثال إن هذا الفتح كان في أرض السند الحقيقية (بحسب التعريف الجغرافي لها)، ثم إنه كان تمهيداً لفتوحات أخرى لاحقة في مقدمتها فتح «الديبل» مركز الميد، ولصوص البحر، وبوابة السند الكبرى على بحر العرب، وشريان التجارة والصناعة، والمرفأ الذي تنتهي عنده دلتا نهر السند. وزيادة على هذه الخصائص التي تمتاز بها مدينة الديبل هذه، فهي بيت الوثنية الأول الذي يقصده الكفار من كل بلاد السند والهند، ويطوفون حول أصنامه، ويقدمون لها القرابين والأموال.

الديبل مركز الأصنام: لما فتح محمد بن القاسم مدينة أرمائيل، وصلت إليه رسالة من الحجاج فيها وصايا حربية مهمة، كان منها: إذا وصلتم منازل الديبل وسوادها، احذروا تلك المنازل، واحفروا الخنادق أينما وصلتم لأنها ستكون ملاذاً وحماية لكم. احفروا الخندق بعرض اثني عشر ذراعاً وعمق ستة أذرع. ولا تقابلوا الأعداء، أو تقاتلوهم حتى أخبركم بذلك.

وقبل التوجه إلى الديبل أخذ ابن القاسم بتنظيم جيشه من جديد. حيث جعل محمد بن مصعب بن عبدالرحمن الثقفي على المقدمة، وجهم بن زحر الجعفي على الساقة، وعطية بن سعد العوفي على الميمنة، وموسى بن سنان بن سلمة الهذلي على الميسرة، ثم جلب باقي المقاتلين من الرماة والخواص والسيافين معه إلى قلب الجيش. ثم خرج فقدم الديبل يوم جمعة.

ومن حسن الطالع أن وصلت في اليوم نفسه سفن الأسطول بقيادة خريم بن عمرو المري، وابن المغيرة، محملة بالسلاح والعتاد والرجال، ومعهم رسالة من الحجاج إلى ابن القاسم أشار فيها إلى ضرورة حفر الخنادق، وأنه قد ألحق بخدمته كبار الأعيان والأشراف، وذكر الحجاج له أسماءهم، حيث قال له: ومن الأسماء التي درجتها في رسالتي: خريم بن عمرو المري: ليس هناك من هو أعز من خريم بن عمرو، لكونه رجلاً

محنكاً قوي القلب شديد المراس، شجاعاً في الحرب، وهو من أسرة عرفت بالصدق والاخلاص، وإن التحاق خريم بجيشك يُبعد القلق والخوف عني، لأنه يتحلى بالخصال والأخلاق الحميدة. وإذا كان خريم عندك، فلا أخاف عليك شيئاً. وإنه من الصفوة يُطيعك ولا يُنكر عليك(١).

وبعد التقاء القوتين: البرية والبحرية، خندق القائد الشاب في أطراف الديبل وركز الرماح على الخندق، ونشر الأعلام، وأنزل الناس على راياتهم، ونصب منجنيقاً ضخماً أحضره معه في جملة عتاده، يقال له: «العروس». وخصص له رجالاً أشداء كانوا يديرونه في ساعة الرمي على المدينة ومبانيها العالية. وكان المنجنيق يومذاك من آلات الحرب المهمة التي تستخدم في حصار المدن، حيث كانت تُرمى به حجارة ثقيلة على الأسوار والأبراج فتهدمها.

وكان في وسط مدينة الديبل معبد كبير للأصنام، يصل ارتفاعه في السماء إلى أربعين ذراعاً، وله قبة بارزة تعلو فوقها سارية عظيمة عليها راية حمراء واسعة الأطراف، لها أربعة ألسن، تأخذ بالحركة والدوران إذا هبّت عليها الريح. فترنو لها أبصار أهل السند، وتهفو إليها قلوبهم. وكان بداخل ذلك المعبد صنم هائل الحجم، كبير البناء، هو «صنم الديبل»، أو «البُدُّ» كما سماه العرب الفاتحون، وذكروه في أشعارهم(٢). وبلغ من شدة تعظيم أهل السند والهند له أنهم كانوا يقربون له القرابين، وينحرون له الذبائح على نحو ما هو معروف عند عبدة الأصنام والأوثان قبل أن يمنَّ الله عليهم بالإسلام، والخروج من الظلمات إلى النور(٣).

والآن بعدما هيأ ابن القاسم جيشه، أعطى الأوامر بالتقدم إلى مدينة الديبل، وجعل الرماة والفرسان في الطليعة، وقرعت الطبول، وارتفع التكبير عالياً، وهجم الجيش هجمة واحدة على وسط المدينة، فالتجأ جنود العدو إلى المعبد الكبير يحتمون به، فأمر ابن القاسم بضرب المعبد ومن فيه بالمنجنيق. وعلى الفور استجاب له جَعْوَنَةُ بن عقبة السلمي صاحب

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٠٠ – ١٠٢.

(٢) انظر ٧١ من هذا البحث.

(٣) فتح السند (ججنامة): ص١٠٣. وبطل السند: ص٢٥.

المنجنيق، ومعه رجاله الأشداء «فالتقت أذرع الرماة في مرمى العروس، كأنها ذراع رجل واحد»، ورموا سارية المعبد بحجر ضخم أصابها بالكسر، فانحنت معه قامتها المنتصبة، وسقطت الراية، فتطيّر الكفار بذلك، وجُنّ جنونهم، فخرجوا مندفعين من داخل المعبد ومن ساحات البد وممراته، وحملوا على المسلمين حملة المستميت، ووثبوا وثبة اليائس من الحياة(١).

وهنا بادر القائد ابن القاسم إلى ملاقاتهم فهزمهم، وردّهم إلى داخل المعبد مرة أخرى، وأمر بالسلالم فَنُصِبَتْ. فنهض رجل من قبيلة مراد من أهل الكوفة، وصعد على السلالم، فكان أول الرجال صعوداً على سور البد، وتبعه عجل بن عبدالملك بن قيس العبدي من البصرة، ثم أخذ الرجال المقاتلون بالصعود إلى الأبراج والأسوار، ففتحت المدينة عنوة. واشتد القتال ثلاثة أيام قَتل فيها ابن القاسم جميع جنود الكفار الذين لجأوا داخل المعبد. وفي هذه الأثناء حاول سدنة الأصنام أن يغلقوا الأبواب، ويحرقوا أنفسهم، فدخل عليهم ابن القاسم، وأمر بقتلهم، واستطاع أن يخلّص أسرى المسلمين المحتجزين الذين أسروا في حادثة سفينة سرنديب.

أما والي المدينة الذي رأى ما حلّ بالأصنام وسدنتها، فقد استبد به الخوف، فألقى بنفسه من فوق سور المعبد، وفرّ هارباً إلى مدينة «البيرون»، وأخبر أميرها جي سيه، بما حصل. ثم ذهب الإثنان إلى الملك داهر في مدينة برهمنا باد ليشرحا له تفاصيل الأحداث، ونتائجها التي أدت إلى غلبة جيش الإسلام على الديبل واستيلائه عليها.

وهكذا سقطت مدينة الديبل التي هي كبرى مدن السند، وسقط معها الصنم العظيم، وتم تحرير المرأة التي صاحت يوماً: يا حجاجُ! وبقية الأسرى الذين كانوا معها. وبعد ذلك أعطى محمد بن القاسم الأمان لأهالي الديبل من النساء والأطفال وكبار السن، ومن استسلم من الجنود وأعلن التوبة والطاعة. ثم عيّن وَدّاع بن حميد البحري عاملاً على الديبل.

وكان من سداد الرأي عند هذا القائد الفاتح أن جعل من هذه المدينة المفتوحة شيئاً آخر. حيث جعلها قاعدة بحرية للمسلمين في بحر العرب والمحيط الهندي. واتخذ منها مركزاً

---

(١) المصدران السابقان، ص١٠٥، وص٢٦، على التوالي.

للعمال والولاة، ومقـراً لهم. ثم اختط فيها خططـاً وأحياءً أنزل بها أربعـة آلاف من جنوده المقاتلين، وبنى لهم مسجداً، فكان أول مسجد يقام في بلاد السند(١).

ويذكـر المؤرخون: أنــه لما تم فتح الديبل، وتم تحريـر الأسرى المسلمين، وغنم الجيش الإســلامي العدد الكثير من العبيـد والغنائم، فـرز القائد محمـد بن القاسم خمُس العبيـد والغنائم من الأموال وغيرها، وأرسلها إلى الخزانة العامة، وبيت المال عند الحجاج، ثم وزّع الغنـائم على المجـاهـدين والمقـاتلين، حيث أعطى كـل فـارس ضعف سهم راكب الجمل أو الماشي(٢).

ومما هـو جديـر بالذكـر هنا أن ديوان الحجـاج في واسط كان يعمل ليل نهار كمـركز للقيادة العامة لحملة السند. وكان الحجـاج نفسه أثناء عمليات ابن القاسم ضد الديبل على صلة دائمـة به. والرسـائل بينهما متبادلة بشأن تحركات الجيش وفتـوحاته. فـالحجاج يرسل بتوجيهاته وتعليماته، وابن القـاسم يرد عليها، مع شرح لتطورات الموقف وعمليات القتال. وقد ورد شيء من هذا القبيل في الصفحات السابقة من هذا البحث. ولسوف يستمر باب المراسلات مفتوحاً بينهما طوال مراحل الفتح على ما سيأتي.

البيرون عاصمة جي سيه بن داهر:

بعد أن فتح ابن القـاسم مدينة الـديبل، استبقى فيها حاميـة قوية، ثم أراد التـوجه إلى مدينة البيرون (عاصمة الأمير جي سيه بن داهر)، فأمر بوضع المجانيق في السفن، وبعثها إلى حصن بيرون عبر مياه (نالـه ساكره)(٣)، وتوجه هـو براً. ولما وصل بلدة «سيسم» في منتصف الطريق بين الديبل والبيرون، وصلته رسالة من الحجاج، جاء فيها: إن كل جهدنا وهمتنا وإتفـاقنا هو أن نـوصلك إلى النصر والظفر. وسـوف ينال الأعداء عقـابهم العاجل وعذابهم الآجـل بعون الله تعـالى. ثم يضيف قائلاً: يجب أن تكـون واثقاً بأن كـل الأفيال والغنائم والمتاع والمال ستكـون لك يوماً ما. لذا عليك أن تعيش حيـاة حسنة مع أصحابك، وتسعى لاحترام كل واحـد منهم. وعليك أن تـوزع جميع الأمـوال والغنـائم التي تحصل عليهـا في سبيل الهيبـة، وتصرفهـا على الجيش، ولا تمنـع مـا يجب بـذلـه في سبيل المأكل

---

(١) بطل السند: ص٢٥ وما بعدها.

(٢) فتح السند «جچنامة»: ص١٠٨.

(٣) أي عبر قناة ساكره، وهي قناة شكّلت الدلتا الرئيسية لنهر السند أثناء مروره في مقاطعة ساكره.

والمشرب، واسْعَ بكل جهدك لتأمين اليسر والحاجات، والإنفاق في سبيل رفاهية الرعية، واستمالة قلوب السكان. وإذا أصبح الصنّاع، والزرّاع، والتجّار مرتاحين ورافهين، فإن الولاية ستكون مزروعة ومعمورة إن شاء الله تعالى(١).

ثم توجه القائد ابن القاسم إلى غزو البيرون. وقبل أن يصل إلى مشارف هذه المدينة والنزول فيها، بعث إليه الملك (راي) داهر رسالة تحذير وتهديد. ويهمنا في هذا المجال أن نذكر قسماً منها:

من داهر بن جج ملك السند وراي الهند وقائد البر والبحر

إلى المغرور والمفتون بنفسه محمد بن القاسم

لتعلم أني لو أشرت بإصبعي إلى جي سيه بن داهر لمحا جيشك من الوجود، وجاء بك أسيراً إليّ. جي سيه الذي قهر الملوك، وهو صاحب مائة حلقة من الأفيال، إنه سيركب الفيل الأبيض الذي لم ولن يقابله لا فرس ولا فارس. إنك لن تستطيع مواجهتنا في القتال. وإن مصيرك هو مصير «بديل» نفسه، فاسلم بجلدك وجيشك.

ولما وقع كتاب راي داهر بيد البطل ابن القاسم، استدعى مترجمه وأملى عليه رسالة شديدة اللهجة. ومن الواجب علينا أن نورد معظم ما جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن القاسم الثقفي

إلى الكافر الجاهل المغرور داهر بن جج البرهمي الغدار

أما بعد: فلابد لك من العلم بأن ما سطرته من الجهالة وغاية الحماقة، قد وصلنا. وفهمنا مضمون حديثك عن القوة والشوكة والأهبة بالأفيال والحشم والجيش. ونحن بقوة الله وحوله نمتلك العدة والأهبة. قال تعالى: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾(٢).

---

(١) فتح السند «ججنامة»: ص١١٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

أيها العاجز، ماذا ينفعك ركوب الفيل، وكثرة العدد والعدة؟ ولعلمك إن الفيل ذليل وعاجز أيضاً. ونحن نفتخر بفرساننا، وهم من حزب الله. وخيل الله وفرسانها هم المنصورون. قال تعالى: ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾(١). وإننا جئنا لقتالك بسبب استكبارك حيث أوقفت سفن أموال سرنديب وأسرت المسلمين.

وإنك لتعلم بأن أوامر دار الخلافة خلافة النبوة، مطلقة ونافذة في جميع أنحاء الدنيا، وأنت تعلن التمرد والعصيان، وتأخذ أموال بيت مال المسلمين التي كان الولاة والملوك السابقون يعطونها ويعتبرونها حقاً في ذمتهم، فيرسلونها إلى دار الخلافة. ولأنك لوّثْتَ نفسك بهذه الخصال الدنيئة، وتمردت على الطاعة، فقد جاءنا الأمر من دار الخلافة كي أتوجه لقتالك، ولسوف أقهرك وأهزمك أينما واجهْتك بعون الله تعالى. وسأبعث برأسك بمشيئة الله إلى العراق، أو أضحي بروحي في سبيل الله، وقبلتُ الجهاد في سبيل مرضاة الله تعالى، وإني آمل الكثير من كرم الله ونصرته لجنوده إن شاء الله تعالى(٢).

وفي ضوء هذه الرسالة الجوابية تطورت الأحداث. فالأمير جي سيه لايزال عند أبيه الملك داهر في برهمنا باد، ومدينة البيرون يتولى الحفاظ عليها الوالي السمني (بهندركو) راهب المدينة، والقائد ابن القاسم صار على مسافة يوم من المدينة المذكورة، وصل بعده إلى منطقة المراعي هناك، فنزل فيها، وكان جيشه قد أنهكه التعب، واشتد به العطش، واقتربت مؤونته من النفاذ.

ولكن أهل البيرون كانوا – سابقاً – قد اتفقوا مع والي مدينتهم أن يكتبوا إلى الحجاج بالصلح، وابن القاسم لا يدري بذلك، فبعثوا سمينين منهم لهذا الغرض، وتعهدوا بعدم القتال. وانهم سوف يستقبلون القائد محمد بن القاسم، ويسلمونه المدينة.

ويروى عن أبي الليث التميمي عن جَعْوَنة بن عقبة السُّلمي أنه قال: كنت مع محمد بن القاسم عند فتح حصن الديبل، حيث توجه بعدها إلى البيرون التي تبعد عن الديبل خمسة وعشرين فرسخاً، قطعها في ستة أيام، ووصل في اليوم السابع إلى «ولهار» القريبة من البيرون، ونزل فيها. أما أهل البيرون فقد أغلقوا الحصن على أنفسهم(٣).

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٦.

(٢) فتح السند «ججنامة»: ص١٠٩ – ١١٢، وفيه نص الرسالتين كاملاً.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١١٣.

وقبل ذلك كان جيش ابن القاسم قد أرهقه التعب من طول المسافة، وأخذ منه العطش مأخذاً كبيراً، كما نقصت المواد الغذائية وأعلاف الحيوانات من الخيل والجمال في ذلك الجيش. وإذا بأهل البيرون يبعثون بالغذاء والأعلاف للجيش ومطاياهم، وفتحوا باب المدينة وفاءً بعهد مصالحتهم.

فلما رأى محمد بن القاسم ما بدر منهم، بعث برسالة إلى الحجاج يذكر فيها وفاء أهل البيرون وطاعتهم، فأجابه الحجاج برسالته قائلاً: أعطِ الأمان لكل من طلبه، ومن انضم إليك من علية القوم فأكرمه، واحترم مكانته ومنزلته، واجعل العقل دليلك في كل تصرف، حتى يثق أمراء النواحي وكبار رجالهم بقولك وفعلك والسلام.

ثم أرسل ابن القاسم إلى الراهب السمني والي المدينة يدعوه لمقابلته قائلاً له: إننا نقدر لطف أهل البيرون، وإكرامهم لجيشنا، ونحن لا نحمل أية ضغينة أو حقد. وفي اليوم التالي توجه الراهب السمني بهندركو، مصحوباً بخدمه وحشمه وهداياه الوافرة إلى ابن القاسم، ووزع الغلال على الجيش، ثم فتح باب الحصن، فدخله ابن القاسم بلا قتال، ووفى أهله بالصلح. وقد هدم ابن القاسم معبد الأصنام، وأقام مكانه مسجداً، وعيّن له إماماً(١).

ومن ثم سار هذا القائد عن البيرون متجهاً نحو الشمال، وهو لا يمر بمدينة إلا فتحها صلحاً، أو عنوة. فأهل مدينة «سربيدس» مثلاً يتقدم رهبانهم إلى ابن القاسم ويطلبون الصلح، فوظف على مدينتهم الخراج. أما أهل مدينة «سهيان» فقد أصابهم الغرور، وأخذتهم العزة بالإثم، فكان لابد من إعلان الحرب عليهم، فحلت بهم الهزيمة، وفتحت مدينتهم عنوة.

سيوستان مدينة الرهبان :

أخذ ابن القاسم يتجه بحملته نحو «سيوستان»، وهي مدينة يقطنها الرهبان البوذيون، وعرفت بهم. وهي تقع على قمة جبل إلى الغرب من مهران، وتبعد حوالي عشرين فرسخاً شمال البيرون تقريباً. وكانت هذه المدينة تحت حكم الملك «بجهرا بن جندر» وهو ابن عم الملك داهر بن جج. كما كان فيها أيضاً راهب «سمني» له أتباعه ورعاياه. فاجتمع هذا الراهب مع الرهبان الآخرين، وذهبوا إلى بجهرا، وقالوا له: إننا جماعة من النساك، ولانحب الحرب والقتال، ونحن ضد إراقةالدماء. ونخشى أن يظفر هؤلاء (المسلمون)،

(١) المصدر السابق نفسه، ص١١٣ - ١١٦.

ونحن نعلم بأوامـر دار الخلافة، والأمير الحجـاج القائل: من طلب الأمـان أعطوه الأمـان، وإذا وافقت، ورأيت من المصلحـة أن نكـون وسـاطـة خير بينكم، ونـأخـذ منهم المواثيق بالأمان؟ ونحـن نعلم أن العرب أهل الوفاء، ويفعلـون ما يقولونه بلسـانهم. لكن بجهرا لم يستمع إلى أقـوالهم ونصيحتهم، واستعـد لقتـال محمـد بـن القـاسم، وأعلن التعبئـة والاستعداد لذلك(١).

ثم أرسل محمد بن القـاسم بعضاً من رجـاله لاستطلاع الأحـوال، ومعرفة إن كـانوا موافقين على الصلح والطاعة، أم منافقين متعنتين. وحينما علم أن جماعة بجهرا يستعدون للحرب، استعد هو الآخر لقتالهم، فنصب المجانيـق، وهيأ الفرسان والرماة، وبدأ بحصار مدينة سيوستان.

ولما بدأ الـرماة بضرب المدينـة من جهة الحصن بـالمنجنيق والسهام والـرماح، تـوجه راهبـان سمنيان إلى بجهـرا وقـالا له: إن جيش ابن القـاسم أقـوى بكثير من جيشك، ولا يمكنك مقاومتـه، وينبغي عدم هـدر النفس والنفيس في سبيل العنت، والاستبداد بـالرأي. ولكنه لم يُصغ لهما، ولم يكترث بهما.

وهنا أرسل الراهبان رسولاً إلى محمد بن القـاسم يحمل رسالة منهما يقولان فيها: إن الزراع والصناع والتجار لا يؤيدون الملك بجهرا، وأنه بجيشه وعدّته لن يستطيع الوقوف أمام جيش المسلمين. فأمـر ابن القاسم بمواصلـة القتال ليلاً ونهاراً. ولما تأكـد بجهرا من الهزيمة، وتضييق الحصار عليه وعلى جيشه، فرّ من الباب الشمالي للحصن في ظلام الليل. وعبر النهر متوجهاً إلى بودهية(٢).

وبعد هروب بجهرا، وإعلان الرهبان الطاعة والولاء، سيطر ابن القاسم على سيوستان، ثم صادر جميع الغنائم والأموال (من ذهب وفضة) من المعـاندين العصاة، الذين وقفوا في وجه تقـدم الجيش الإسلامي، فيما عـدا الرهبان الـذين أعلنوا الـولاء قبل وصول الجيش الفاتح. ثم وزّع الغنائم بعد إخراج الخمس منها، وإرساله إلى دار الخزانة للحجاج.

وقد عمد ابن القاسم إلى تعيين عبـدالملك بن قيس بن الجارود ممثلاً عن دار الخلافة على المنطقة لنشر الأمن والرفاهية بين الرعية.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١١٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١١٩.

وهكذا صـار الجانب الغربي لنهـر مهران على امتداده، خـاضعاً لسيطـرة ابن القاسم، حيث أقام معسكراً لجيشه في «راور» هناك.

معركة نهر مهران ومقتل داهر:

انتخب القائد ابن القاسم أحد كبار رجاله من الشاميين مع مترجم له، ليحملا رسالة إلى الملك داهـر في الجانب الشرقي من نهر مهـران، وقـال لهما: كل قول يقـولـه المترجم، وكل جواب يجيبـه داهر بن جج، يُكتب في محضر أمـام الجميع وبحضور حفل الأعيـان، وذلك تمشياً مع التـوصيات الصـادرة من الحجاج. ولما وصلا إلى داهـر، تقدم الشـامي، وقال: نحن رسل القائد، وقد أمرنـا أن نقدم هذه الرسالة لكم أمام الأمـراء والأعيان. فقال داهر: قل ما لديك. فقال الشامي:

إن القـائد محمد بن القـاسم يقـول: إذا استجبت، فإن طـريقك واسـع، ولن يصيبك أي ضرر، أما إذا امتنعت، فإن جيش الإسلام سيشـق طريقـه ويعبر النهر، ويأتي إليك مقاتلاً. ولما انتهى من قوله، تشاور داهر مع وزيره وباقي مستشاريه، ثم قال للشامي: ارجع إلى أميرك، وقل له إنني قد خيّرته في العبـور. ونحن على استعداد لقتالكم، فإذا أراد فليعبر، وإلا فإننا نحن العابرون.

ورجع الرســولان إلى محمد بن القاسم، وأخبراه بما أجـاب به داهر على رسالتـه. فقال ابن القاسم: إنني بعون الله سأعبر نهر مهران، وفي الوقت المناسب.

وفي هـذه الأثناء أرسل الملك داهـر ابنه جي سيـه على رأس جيش من المقاتلين الأشـداء حتى يقف في وجه المسلمين، ويمنعهم من عبور النهـر. فجاء جي سيه بكل مقاتليـه وعدته وسلاحه على متن السفن الحربية عن طريق نهير يصب في نهر مهران.

أما ابن القـاسم الذي كـان نازلاً في الجهـة الغربية فقـد أخذ يـراقب المنافـذ المؤدية إلى الجانب الشرقي، لمعرفـة أي منها أسهل للعبـور، ويباغت العدو منهـا. وبقي هناك خمسين يومـاً حتى نفذت أرزاق رجاله المقـاتلين، وكذلك أعلاف الخيل والدواب الأخـرى التي كان يستخدمهـا جيشه. كما أصيب العديد مـن الخيل بمرض الجذام ومات. فاضطـرب جيشه من قلة الغذاء، واضطر جنده إلى أكل لحوم الخيل المريضة(١).

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٤٤.

ولما وصل خبر أوضاع جيش المسلمين إلى داهر، فرح فرحاً شديداً، وأرسل مبعوثاً يحمل رسالة إلى محمد بن القاسم تنم عن كثير من السخرية والامتهان، إذ جاء فيها: اعلم يا محمد، أن مراميك ومقاصدك في فتح بلادنا قد جلبت عليك الشؤم والعناء، فأصبحت في ضائقة وعوز إلى الماء والغذاء والدواب، وإن ترجع إلى صوابك، وتقبل بالصلح نرسل لك أعلاف الحيوانات حتى لا يموت جيشك من الفتك والفاقة.

فردّ عليه محمد بن القاسم بهذه الرسالة:

إنّا لسنا من الرجال الذين يرجعون عن عزمهم وتصميمهم، وإذا أردت الصلح والسلام بيننا عليك بإرسال الأموال التي نهبتها، إلى دار الخلافة، وإلاّ فإني سأرسل برأسك بعون الله تعالى إلى العراق(١).

ثم كتب محمد بن القاسم رسالة إلى الحجاج يشرح فيها أحواله وأوضاع رجاله من نقص الغذاء، وموت الخيل، وقلة الأعلاف.

وكان هناك شخص اسمه «الطيّار» قد بعثه الحجاج خلسةً إلى جيش محمد بن القاسم ليستطلع الأمور بصورة خفية، ويُعلم الحجاج عن حقيقة أوضاع جيش المسلمين. وقد وصل الطيار إلى مدينة مكران، فرأى شخصاً قادماً نحوه، فسأله: من أين أتيت يا أخي؟ فأجابه: جئت من معسكر محمد بن القاسم. فسأله الطيار قائلاً: صفْ لي أحواله، فقال: إن الحالة يرثى لها. نفذ الغذاء وانعدمت الأعلاف، والجيش يعاني من المرارة والضنك والقحط، كما ان الخيل أغلبها قدمات، وما بقي منها بعد الشفاء من مرض الجذام أصبح معوّقاً ومشلولاً. ولهذا فإن جيش العرب متردد إزاء هذه الشدة.

ورجع الطيّار إلى الحجاج، وشرح له أوضاع الجيش الإسلامي. وما إن سمع الحجاج بهذه التفاصيل عن الضيق والضنك الذي يعانيه محمد بن القاسم، حتى أرسل له ألفي حصان، وما يحتاج إليه الجيش من المؤونة بما فيها الخل. وكتب إليه رسالة جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

من الحجاج بن يوسف الثقفي إلى محمد بن القاسم:

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٤٥.

اطلعت على أحوالكم من الرسالة، ومن المبعوث الذي بعثته، وعلمت بالمرض الذي أصاب جيادكم، والذي أدى إلى هزالها وضعفها، لذا فإنني مرسل إليك بألفي فرس أصيل ليركبها الأتباع والمقربون، والذين يستحقونها من الفرسان الميامين. وإنني ما أرسلتك لفتح السند لولا أنني مؤمن بأن الله سبحانه وتعالى معيننا على دفع الكفار والنصر عليهم، ليرتفع لواء الإسلام عالياً. وعليك تهيئة المراكب والسفن بكل طريقة ممكنة لتصنع منها جسراً متراصاً يسهّل عليكم عبور النهر، وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء الكفرة(١). ثم يوصيه قائلاً:

وإن كل من آمن بوحدانية الله تعالى، وجاء إلى الطاعة المحمدية، عليك أن تحافظ على ماله وعرضه وأرضه. أما المعاندون المتكبرون الذين لا يأتون إلى طاعة الله ورسوله، فعليك ان تقسو عليهم، وأن تبطش بهم، وتقطع دابرهم، مع إعلان الحرب عليهم.

وإذا خيّرك الأعداء بين أن يعبروا هم النهر، أو تكونوا أنتم العابرون فلا تعطهم الفرصة. وقل لهم بكل حزم: إننا سنكون العابرين، لتُلقي الرعب والخوف في قلوبهم، وليعلموا أن الإسلام لو لم يكن بتلك القدرة الهائلة، والإيمان العميق لما جاء إلى بلادهم. كما عليك أن تختار مكان العبور، حتى يكون ثابتاً تحت أقدامكم.

ولما وصلت هذه الرسالة إلى يد محمد بن القاسم، استجاب لها، وصمم على عبور نهر مهران، فأمر بسحب جميع السفن إلى الضفةالغربية من النهر حتى يتم ربطها على قياس عرض النهر تماماً لتكون جسراً، ثم تحركت السفن مرة واحدة، وبشكل قوي لربط الضفتين لتوصيل المقاتلين المسلمين إلى الضفة المقابلة.

ولما وصلت طلائع السفن إلى الطرف الشرقي من النهر، بدأ المسلمون برمي السهام والرماح بكثافة غزيرة، مما أدى إلى تعثر جيش الكفار حيث فر جنوده مدبرين، وهرب جي سيه كذلك.

وهنا أدرك الملك داهر خطر الموقف بعد أن كان مستخفّاً بهذا القائد الشاب، وغير مكترث به. فما كان من داهر إلا أن هيأ جيشاً كثير العدد والعدة يريد به مهاجمة المسلمين والقضاء عليهم. وبدأ تسلسل الأحداث.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٤٦ وما بعدها.

في اليوم الأول : الجيشان كلاهما في الجانب الشرقي من النهـر. لكن محمد بن القاسم تقدم بجيشه بحيث صار على مقربة نصف فرسخ من جيش داهر، وعسكر هناك.

وفي اليوم الثاني: تقدم جيش داهـر (بقيادة الأمير ديبر)، من جيش المسلمين. والتحم الجمعان من بداية الصباح حتى انصرام الـرواح، وقُتل الشجعان والفرسان والأبطال من الفريقين. ثم انسحب كل إلى موقعه.

أما في اليوم الثالث: فقد اتخذ القتال شكل المبارزة بين فارس وآخر، فأرسل داهر أحد فرسانه الشجعـان إلى الساحة، وصاح: هل من مبارز؟ فبرز له أحد فـرسان العرب فقتله، ثم تلاه آخـر فقُتل أيضاً. وصار كلما خرج فـارس من جيش داهر قتله فرســان الإسلام. وهنا تقدم إلى داهـر أحد وزرائه قائلاً له: يا سيـدي الملك. إنك تحارب بشكل خاطىء. وإذا استمـر الحال على هذا النحـو، فإن جيشك سيُقضى عليـه. إنك لم تقـابلهم أثناء عبـورهم النهـر. والآن بعدمـا تجمعـوا واحتشدوا أمـامك تقـاتلهم فرداً فـرداً. إنني أرى أن تجمع جيشك فـرساناً ومشـاة وعلى الفيلة، وتهجـم على هؤلاء المسلمين هجمة رجـل واحد. ولما سمع داهر كلام وزيره اقتنع بذلك، وارتضى رأيه.

وأما في اليوم الرابع: فالملك داهر جمع أتباعه من أبناء الملوك وجيوشـهم، فكان عددهم خمسة آلاف مقـاتل من الخواص، ومائة سلسلـة من الفيلة. واعتلى داهر ظهـر أكبر الفيلة، وقد لبس سابغة القتـال من الزرد، وخوذةً من الحديد، ودرعاً من الفـولاذ، وبجانبه اثنان من عبيده أحدهما يحضر الرماح والسهام، والآخر يقدّمها إلى جلالته.

ثم تقدم داهر بكل جيشه وقواته، فـوضـع الفيلة في المقدمة، وجمع الجنود في القلب على شكل دوائر حـولــه، وجعل المسلحين من المشـاة حـاملي الــرمـاح والسهـام في الميسرة، والمسلحين بالسيوف في الميمنة.

وعند ذلك أمـر محمد بن القـاسم جيشه بـالتقدم، فتقـدم جميع الفرسـان والشجعان المبارزين، ثم تبعهم بقيـة الجيش، حيث كان محمد بن القـاسم ومحرز بن ثابت القيسي في القلب، وجهم بن زحر الجعفي في الميمنـة، وذكوان بن علوان البكـري في الميسرة، وعطاء بن مالك القيسي في المقـدمة، ونُباتـة بن حنظلة الكلابي في السـاقة. ثم تقدم محمـد بن القاسم وخاطب الجيش قائلاً: يا أبناء العرب، إذا فُزْتُ بالشهادة فإن أميركم محرز بن ثابت.

ودارت المعركـة، واحتدم القتال، فتقـدم محرز بن ثابت برجـاله، وقاتل قتـال الأبطال حتى استشـهد، لكن جيش المسلمين بقي صـامداً في الميدان. وفي هذه الأثنـاء تحركت الفيلة، وصنعت من نفسهـا تسع حلقات، فحمل جيـش الإسلام عليهـا، فتراجع الكفار، وارتـدت الفيلة إلى مـواقعها الأولى. وانتهى النهار، والموقف لم يحسـم، وعاد كل فريق إلى مـوضعه بانتظار الغد. وكان القائد محمد بن القاسم في حال ينطبق عليها قول الشاعر:

فـإن يك صـــــدرُ هـــــذا اليـــــوم ولّى

فـإنّ غـــــداً لنـــــاظـــــره قـــــريـبُ

وجاء اليـوم الخامس من المعارك : فقد ذكـر المؤرخون أن هـذا اليوم من أيـام تلك المعـارك الضاريـة كان يـوماً مشرقـاً صافيـاً، وصادف يـوم خميس بتاريخ العـاشر من رمضـان سنة ٩٣ هـ. فخـرج داهر إلى ساحة الوغى منـذ الصباح، بعد أن جمع إليه عشرة آلاف من الفرسان، بعضهم أسدل جدائله على كتفيـه وقد استلّ سيفه، وبعضـهم الآخر قد عقد شعره فوق رأسه مشـهراً سيفه محتمياً بدرعه.

وتقدم جيش داهـر حتى أصبح قبالـة جيش المسلمين. وكان داهر راكبـاً على ظهر فيل مطهّم، تحيط به الفيلة بركبـانها المسلحين على شكل دوائر، واستخدم من الفيلة سلسلتين في الميمنة، وسلسلتين في الميسرة، وهو في القلب وجميع السيّافين حـوله. وجعل جملة الزطّ الشرقيين في السـاقة.

ولما رأى القـائد ابن القاسم ذلك ا لجيش وتنظيماتـه، خرج إلى السـاحة، وجعل حـاملي الألوية أمام الفيلة. ووضـع في مقدمة جيشه كلاً من محمد بن زياد العبدي، وبشر بن عطية مع مقاتليهما في طرف، ومحمد بن مصعب بن عبـدالرحمن الثقفي وخريم بن عمرو المري في طرف آخـر قبالة الملك داهـر. وعيـّن نباتـة بن حنظلة الكلابي على الميمنـة، وذكوان بن علوان البكري على الميسرة. وجعل هذيل بن سليمان الأزدي، ومسعود بن الشـعري الكلبي، وكعب ابن مخارق الراسبي في القلب (١).

وبعدمـا انتظمت العسـاكـر وتجمعت الجموع من المقـاتلين والفرسـان، وزّع محمد بن

(١) تفاصيل هذه الوقائع كاملة في المصدر السابق نفسه (فتح السند ججنامة)، من ص١٦٨ – ص١٧٥.

القاسم الفرسان إلى ثلاثة أقسام، جعل كل ثلث في الميمنة، والميسرة، والقلب. ثم نُودي على حاملي المشاعل المشبعة بالنفط حتى تهيأوا بعتادهم ونيرانهم، وجرى توزيعهم على أقسام الفرسان، واستعد جميع رماة السهام مع أقواسهم.

ولما انتهت صلاة الصبح، اصطف هؤلاء المجاهدون براياتهم وأعلامهم على خمسة صفوف، ثم التفتوا إلى قائدهم ابن القاسم طالبين الأمر بالهجوم والقتال. وهنا وقف القائد خطيباً في الجموع قائلاً:

يا أبناء العرب، إن طائفة من الكفار وقفت في وجهنا للقتال. إنكم بعون الله أنتم الغالبون، وبحوله وقوته ستنتصرون عليهم. عليكم أن تكونوا مطمئنين هادئين، وتقدموا بكل قوة واقتدار إلى الأمام. وليصمد كل مقاتل في موضعه، لأن الله تعالى يجعل عاقبة المتقين الخير العميم، وطيبّوا أفواهكم بذكر الله وبآيات القرآن الكريم.

ثم نادى على السقائين ليوزعوا الماء على العطاش، ووقفوا في كل صف من صفوف المقاتلين ليوزعوا الماء، عند الحاجة، عليهم حتى لا يتحرك أي مقاتل من مكانه، ولا يتركه.

وقد استثارت كلمات القائد الشاب جموع المقاتلين والمجاهدين في سبيل الله، وارتفعت أصواتهم بالنشيد والحماسة، وخرجوا للحرب. فكان أن تقدم القائد ثانية، وصاح في القوم:

أين أنت يا خريم بن عمرو المري؟ أين أنت يا محمد بن مصعب؟ أين أنت يا نباتة بن حنظلة؟

أيها الأنصار والأصحاب والأقرباء، أيها المسلمون، يا رماة الرماح والسهام. عليكم جميعاً بالثبات والصمود، ولا تتخاذلوا. احفظوا صفوفكم. فهجم الجميع هجمة واحدة على جيش الكفار.

ولكن جيش الكفار بقي صامداً ومتماسكاً، ويقاتل بكل ضراوة حتى أوجد ثغرة استطاع منها أن يخترق بعض صفوف المسلمين، لكن الله ينصر جنده ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾. فلم تؤثر تلك الثغرة، فحمي الوطيس، واصطدمت السيوف بالسيوف، وتطايرت الحراب والسهام والرماح، وارتقت المشاعل في الفضاء، وازداد القتال شراسة

من شروق الشمس حتى اقترابها من المغيب. وقتل في هذه المعركة أكثر المشركين والكفار، ولم يبق منهم سوى ألف مقاتل بمن فيهم الملك داهر على ما يذكر المؤرخون.

وأما الملك داهر فقد ظل في المعركة متماسكاً مقاتلاً، هو ومن بقي من جيشه واتباعه من أبناء الملوك، حتى اصفرار الشمس. وفي هذا الوقت صاح ابن القاسم قائلاً: يا حملة المشاعل هذا هو وقتكم وموعدكم فتساقطت السهام المشتعلة على هودج الملك داهر، واشتعلت فيه النار، وسقط داهر، فتناوله أحد المقاتلين المسلمين برمية سهم فقتله. وبذلك زال أكبر خطر كان يهدد المسلمين في بلاد السند قاطبة. وانتهت أسطورة داهر راي الهند وملك السند.

ويروي المدائني أن قتل الملك داهر كان على يد رجل من بني كلاب يُقال له عمرو بن المغيرة الكلابي(١)، وعندما قتله أنشد قائلاً:

الخيل تشهدُ يوم داهر والقنا

ومحمدُ بن القاسم بن محمدِ

أنيّ فرجتُ الجمْعَ غَيْرَ مُعَرِّدٍ(٢)

حتى علوتُ عظيمهم بمهنّدِ

فتركْتهُ تحت العجاج مجندلاً

متعفّر الخديّن غيرَ مُوَسَّدِ(٣)

وقال ابن الكلبي: إن قاتل الملك داهر هو القاسم بن ثعلبة بن عبدالله بن حصن الطائي(٤).

---

(١) فتوح البلدان: ص٤٢٦. والكامل في التاريخ: المجلد الرابع، ص٥٣٨.

(٢) عَرَّدَ الرجلُ الطريق: انحرف عنه.

(٣) وَسَّدَ الشيءَ: جعله تحت رأسه كالوسادة.

(٤) فتوح البلدان: ص٤٢٦. والعقد الثمين: ص١٧٥.

ومما يؤيد صحة هذا القول: ما جاء على لسان الأميرة «سيتا» إبنة الملك داهر نفسها، وذلك في مجلس الخليفة سليمان بن عبدالملك، على نحو ما سنرى فيما بعد.

وكانت هذه الأميرة «سيتا» قد شاء لها القدر أن تبقى على قيد الحياة، بعد مصرع أبيها (راي داهر)، لتكون لها قصة ذات شأن في حياة القائد الشاب محمد بن القاسم فاتح السند. ويهمنا أن نعرف هذه القصة، وما بها من أسرار، ولكن ليس الآن، بل عندما يحين الوقت للحديث عنها في الموضع الخاص بها، في الفصل اللاحق، لأن طبيعة البحث تفرض ذلك.

ونعود الآن مرة أخرى لتكملة الحديث عن نتائج معركة نهر مهران. فقد كتب محمد بن القاسم إلى الحجاج بالفتح، وبعث برأس داهر إليه، وعهد بذلك إلى صارم بن أبي صارم الهمداني، على أن يرافقه في السفر إلى العراق ذكوان بن علوان البكري. كما بعث إلى العراق أيضاً أسماء زعماء الهند الذين قتلوا في تلك الحرب.

ولما وُضع رأس داهر، وملابس الملوك وأعلامهم أمام الحجاج، واصطف العبيد، برز رجل من ثقيف خلسةً، وأنشد الأبيات التالية حول مقتل داهر(١):

فُتحَتْ بلادُ السند بعد صعوبةٍ

ومهابةٍ لمحمد بن القاسمِ

ساسَ الأمورَ سياسةً ثقفيةً

بشهامةٍ منه، ورأيٍ حازمِ

لا رأسَ إلا رأسُ داهرِ فوقه

عند الملوك بخطبه المتفاقمِ

ونساؤه يُبدين نَوْحَةَ حُرّةٍ

وخيولُهُ تَبكي بدمعٍ ساجمِ

---

(١) فتح السند «ججنامة»: ص١٨٢.

ولما سمع الحجاج هذه الأبيات، فرح قلبه، وانبسطت أساريره، وأنشد هذا البيت:

إن المنـــــايـــــا لا يُبـــــالىٰ حتْفُهـــــا

مـــــا لم يَنَلْـنَ محمـــــدَ بن القـــــاسـمِ

وجاء في بعض الروايات، أنه لما وصلت بشائر فتح السند، تتقدمها الرايات ورأس داهر ابن جج إلى الكوفة، أمر الحجاج أن ينادي المنادي فيها للخطبة في المسجد الجامع. ثم صعد الحجاج المنبر، وحمد الله وشكره، وأثنى عليه لنصره عباده وجنده، وصلى على الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه، ثم أثنى على أولي الأمر في الدولة المحمدية، وقال: هنيئاً لأهل الشام والعرب في فتح السند والهند، وهنيئاً لهم ما حصلوا عليه من الأموال، والمياه العذبة لشط مهران، والنعم الوافرة التي أنعم الله تعالى وأظهرها عليهم. ثم قرأ رسالة فتح السند، وأعلن الفرح والابتهاج بين الناس. وأرسل التحف والهدايا والجواهر إلى الخليفة الوليد بن عبدالملك في دمشق، وأنعم على الطائفة التي كان لها اليد البيضاء في ذلك الفتح، بالمنزلة الرفيعة، والأنعام الوافر(١).

وخلاصة كل ما تقدم، كان انتصار القائد ابن القاسم في معركة مهران، إيذاناً بغلبة العرب الفاتحين على بلاد السند كلها، وإعلاناً بأن مقاومة أهل البلاد ليست مجدية، بحيث صار هذا البطل الشاب لا يصدّه حصن، ولا تقف في طريقه عقبة، ولاترهبه فلول جيش مخذول(٢).

راؤر منتجع الملك داهر :

سار القائد ابن القاسم إلى مدينة «راؤر»، وهي منتجع الملك داهر، ومرتع زوجته الملكة «بائي». وكان الأمير جي سيه بن داهر قد استقر فيها بعد قتل أبيه، واعتصم بحصنها المنيع، هو وجماعة من أبناء الملوك والأمراء. وكان جي سيه مغروراً بنفسه، مفتوناً بشبابه، وتطلّع إلى الحرب مرة أخرى. ولم لا يكون ذلك؟ أليس هو في نظر نفسه بطلاً شجاعاً مظفراً؟ فهو جي سيه (ومعناه بالهندية: المظفّر بالأسد). فقال لأتباعه وقادة

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٨٣.

(٢) بطل السند: ص٣١.

جيشه: لابد من الوقوف في وجه المسلمين، وألا نستسلم للعار والهزيمة، فإذا قُتلنا فلنا الشرف الرفيع.

فقال له الوزير سياكر: إن رأي الأمير ليس صواباً، لقد قُتل ملكنا داهر، وهُزم جيشنا، وتفرق شملنا، ونفرت قلوبنا من الرعب من قتال العدو. لماذا تريد الحرب؟ طالما أن الولاية مستقرة، والمدن والدساكر الباقية والحصون، والمقاتلين في المناطق الأخرى ما انفكت تدين لك بالملكية والولاء؟

إنني أرى، أن من الصواب أن نتوجه إلى مدينة «برهمنا باد»، والتي فيها خزائن المال والاتباع، وسكان المدينة موالون لعائلة داهر بن جج. ولسوف يكونون جميعاً في صفك إذا نشب القتال.

ثم فكر جي سيه في الأمر ملياً، فوجد أن الرأي الصواب هو ما قاله الوزير. فوافق على هذا الرأي، وكذلك بقية الأمراء والأعيان، وانتقلوا إلى برهمنا باد. وهكذا حصل.

وبالمقابل بقيت الملكة بائي (زوجة داهر) في راؤر لمقاتلة العرب، ومعها جيش كثير العدد، وقفوا جميعاً حتى الموت.

ولما سمع محمد بن القاسم بمقاومة بائي مع جيشها في أرور، تقدم وحاصر المدينة، وبدأت المنجنيقات ترمي الحجارة الضخمة، وكذلك رماة السهام والرماح، والمشاعل النفطية. فاندلعت الحرائق من كل جانب، وبدا للعيان الهزيمة المرتقبة لجيش الكفار. وبعد ذلك فُتحت أبواب المدينة عنوةً، بعد أن امتنعت الملكة عن المصالحة. ودخل ابن القاسم مظفراً منتصراً، وبقي هناك ثلاثة أيام. وقتل معظم مقاتلي المدينة، ثم أسر عدداً كثيراً من الرجال والنساء والعبيد، واستولى على جميع الخزائن والأموال والسلاح.

أما الملكة بائي فقد جمعت نساء الحصن، وقالت لهن: لقد انفصل جي سيه، وذهب عنا. وها قد دهمنا محمد بن القاسم، وليس لنا مفر من هؤلاء الغزاة. ولقد تبدل عزّنا بالذل والهوان. والفرصة ضيقة أمامنا. وليس لنا أمل في السلامة أو النجاة، وما بقي علينا إلا أن نحرق أنفسنا، ونلتحق بأزواجنا. ثم جمعت النسوة الأخشاب والقطن والحطب، وأضرمْن النار فيها، وألقيْن بأنفسهن في لهيب النار المشتعلة، فأتت عليهن جميعاً(١).

(١) فتح السند «ججنامة»: ص١٨٥ وما بعدها.

وهذا العمل السلبي الذي أقدمتْ عليه الملكة بائي، ما هو إلاّ من قبيل تحاشي الاستسلام، أو الوقوع في الأسر، فقد أخذتها العزة بالإثم. وكان من المنطق والحكمة لو امتنعت عن إحراق نفسها وباقي النساء اللواتي كنّ معها، حتى ولو وقعت وإياهن في الأسر، لأنهن سيجدن أن المسلمين الفاتحين من أشد الناس محافظة على الحرمات، وصوناً للأعراض. وسيعرفن أيضاً أن آداب المسلمين الفاتحين في القتال، وأخلاقهم في المعارك والحروب مما يصح أن يكون مثالاً يحتذي به المحاربون على مر الأيام والعصور، مادامت نوازع القتال تجيش في نفوس بني البشر. وهذا القول ليس من باب التحيز، أو التباهي لكوننا مسلمين، وليس فخراً، أو ادعاءً، بل التاريخ شاهد على صحة ما نقول: حيث لنا في موقف نبيّنا محمد ﷺ، من ابنة حاتم الطائي عندما وقعت في الأسر، أعظم حجة، وأكبر دليل، وأسطع برهان. ولنا في رسالة الخليفة الصديق أبي بكر رضي الله عنه، لقادة جيوش المسلمين أيام الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام دليل ثان. ثم لنا في وقفة الحق من المسلمين مع سارة القوطية في الأندلس دليل ثالث. وهناك أيضاً أدلة كثيرة، لا يتسع المجال لذكرها هنا، أو الإشارة إليها في هذا القبيل.

أجل! لقد انثلّ عرش مملكة السند. فالملك داهر قد قتل، وزوجته الملكة بائي قد انتحرت حرقاً بالنيران، وابنته سيتا وقعت في الأسر، وابنه جي سيه قد هرب إلى برهمنا باد في محاولة منه لإقامة عرش جديد له، يخلف به عرش أبيه الذي انهدم.

برهمنا باد العتيقة:

برهمنا باد اسم مركب من مقطعين: «برهمن»، و«أباد». ومعناه: مدينة برهمن. وهذه المدينة قديمة جداً، حيث بدأت بها البرهمية في السند، كما نشأت فيها سلالة ملوك البراهمة. ومن هنا جاءت أهميتها. وكان لها عند أهل السند مكانةتاريخية مرموقة، لأنها «ميراث الأسرة الحاكمة»، فلذلك سمّوها «برهمناباد العتيقة». ويضاف إلى ذلك أنها كانت مسقط رأس الملك داهر.

وكان لهذه المدينة أربعة أبواب، موزعةً على جهاتها الأربع. بحيث يمر بها الناس حين الدخول إليها، أو الخروج منها. وكان جي سيه قد انتقل إليها – كما ورد سابقاً – وأخذ يجمع فلول جيش أبيه الذين انهزموا في مهران وراؤر، ثم باشر بكتابة الرسائل إلى الملوك والأمراء في البلاد المجاورة يدعوهم للانضمام إليه، حتى يتمكن من ملاقاة جيش المسلمين القادم إلى المدينة. وجاءه المدد، فاستعد للقتال.

وكان القائد ابن القاسم قد سار إلى برهمنا باد، ولما وصل إلى أطرافها أمر بحفر خندق عظيم، ثم بدأ القتال بين الطرفين. وكان المشركون يخرجون يومياً للقتال والمبارزة، وهم يقرعون الطبول، ويواصلون الحرب من الصباح إلى المساء، ثم يعودون إلى حصنهم، والمسلمون إلى خندقهم. وكانت الحرب تحصد العديد من الجانبين. وكان جي سيه قد خرج من المدينة سراً، وذهب إلى ملك ولاية «باتيه» المجاورة يطلب مزيداً من الرجال والعتاد، بعد أن أوكل أمر المدينة إلى قادة الحاميات العسكرية على الأبواب. لكن ابن القاسم استطاع أن يضرب حصاراً على المدينة، ويمنع وصول المدد إليها. واستمر الحال على هذا المنوال مدة طويلة. وكان جي سيه لايزال يبحث عن المساعدات عند الملوك الآخرين.

وإزاء هذا الحصار الشديد تماسك المشركون، وتعاضدوا، واندفعوا للقتال من جديد، وحملوا على المسلمين حملة اليائس الذي نزل به الخطب، وانسدت عليه سبل النجاة. فهجم عليهم جيش المسلمين هجوماً ضارياً فأزالهم عن مواقعهم، وفتح المدينة عنوة من جهة البوابة الشرقية لها. ودمّر كثيراً من أبنيتها، بحيث تحولت إلى رسوم وأطلال. وبعد ذلك دخل البطل ابن القاسم، وقال: لا تقتلوا إلاّ المسلح المحارب، ومن كان بيده السلاح وهو هارب فخذوه أسيراً، ومن أراد الأمان والطاعة فاتركوه. ولاتدخلوا البيوت الآمنة(١).

وهكذا تم فتح مدينة برهمناباد العتيقة، وبقي جي سيه بعيداً عنها، وصار ينتقل من مكان إلى آخر عند ملوك المناطق النائية.

أما الفاتح ابن القاسم فقد واصل خط سيره، فتلقّاه أهل مدينة «ساوندري سمه»(٢)، وقد خلت أيديهم من السلاح بعد الذي بلغهم من أنباء الدمار والخراب الذي حل بالمدن السنديةالتي أظهرت المقاومة والعناد. وسألوه العهد والميثاق، فأعطاهم الأمان، واشترط عليهم ضيافة المسلمين، فقبلوا بالشرط راضين، ثم دخلوا جميعاً في الإسلام(٣).

وبعد ذلك صار ابن القاسم يقطع البلاد، ويدنو له بعيدها، ومشي في طريقه، ولما وصل إلى مدينة «بسمد» خرج أهلها يطلبون الصلح، فلم يبخل به عليهم. فاطمأنت قلوبهم، ودخلوا في دين الله أفواجاً.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٩٢ – ص١٩٦.

(٢) ساوندري سمه: هي حاضرة بلاد سمه، وكانت جزءاً من اقليم لوهانة.

(٣) فتوح البلدان: ص٤٢٦.

الرور وبغرور:

تحرك ابن القاسم بجيشه حتى وصل إلى مدينتي: «الرور» و«بغرور» قرب نهر السند. ولم يكن هذا النهر يفصل بين هاتين المدينتين التوأمين، بل وقعتا على جانب بعضهما، كأنهما مدينة واحدة، وإن كانت الرور أعلى من جارتها، لأنها تقع على جبل، وطريقها وعرة، والوصول إليها فيه شيء من المشقة والعناء. وكان ابن القاسم قد عسكر قبالتهما على ضفة النهر المجاورة لهما، وضرب عليهما حصاراً امتد عدة أشهر، ثم استسلم له أهلوهما طلباً للصلح، على أن لا يقتلهم، ولا يعرض لبدّهم، وقال لهم: ما البدّ إلا ككنائس النصارى واليهود، وبيوت نيران المجوس؛ ووضع عليهم الخراج بالرور، وبنى مسجداً(١).

ولما دان الأهالي بالولاء والانقياد، اتخذ ابن القاسم قراراً بتعيين رواح بن أسد، أحد أحفاد الأحنف بن قيس، والياً على الرور، وعهد بالأمور الشرعية ودار القضاء والخطابة إلى قريبه الإمام الجليل موسى بن يعقوب بن طائي بن محمد بن شيبان بن عثمان الثقفي، ودعاهما إلى استمالة الرعية بالكلمة الطيبة، والقول الحسن. وأعطاهما الأوامر المطلقة في تنفيذ أحكام الله(٢).

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى المعنى الذي يحمله اسم كل من هاتين المدينتين المذكورتين، وبيان الخصوصية التي ينفردان بها.

فالرور، معناها: مدينة النهر. أي مدينة نهر السند. وهي بالفارسية «رود» (بالدال في آخرها)، وبالمعنى ذاته. وكانت الرور عاصمة السند كلها قبل الإسلام. وكان فيها معبد الهنود، الذي يدعى «نوبهار»، ومعناه المعبد الجديد، لأنه أقيم خلال فترة سيطرة الديانة البرهمية على السند. وكان فيها أيضاً مدافن ملوك البلاد.

أما بغرور، فمعناها: هبة النهر. أي هبة نهر السند. وهي مؤلفة من مقطعين: بغ، وتعني: هبة، ورور، بمعنى النهر (كما ذكرنا). ثم تحول اسم بغرور إلى «بكهر» فيما بعد(٣).

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٤٢٧. والعقد الثمين: ص١٧٦. وبطل السند: ص٣٣، وما بعدها.

(٢) فتح السند «ججنامة»: ص٢٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٢٥.

ومما هو جدير بالإشارة أيضاً، أن هاتين المدينتين(الرور وبغرور)، والمناطق المحيطة بهما، قد ارتحل إليها كثير من العرب ذوي الحسب والنسب، وأقاموا فيها، بخاصة بني ثقيف. وقد سبق القول في هذه الناحية.

الملتان ثغر بيت الذهب:

غادر ابن القاسم الرور وبغرور متجهاً نحو مدينة «السكة»، وهي دون نهر «بياس»، ففتحها عنوة، ثم قطع ذلك النهر الذي يؤدي إلى مدينة «الملتان»، حيث هي أحد الأهداف العظام التي يرمي إليها من حملته على بلاد السند.

وكانت الملتان مدينة غنية، ومقدسة، إذ لها من التقديس عند أهل السند، ما يفوق مدينة الديبل. ففيها «البد العظيم»، أو بد البدد الذي تهدى إليه الأموال، وينذر له النذور، ويحج إليه السند بأعداد لا ينقطع سيلها، فيطوفون حوله، ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده، ويقدمون القرابين إليه(١).

وقد بلغ من ضخامة ذلك المعبد، ورحابة ساحاته أن كان له ستة آلاف كاهن يقومون على خدمته ليل نهار، ويستقبلون فيه الحجيج ويودّعونه بعد أداء طقوس الوثنية ومناسكها في التزهد والعبادة إذا صح التعبير.

لقد جاء البطل ابن القاسم إلى مدينة الملتان، فتهيأ له أهلها، وخرجوا لقتاله. ونشبت الحرب بينه وبينهم، وكانت سجالاً، ودارت فيها معارك طاحنة، سقط خلالها عدد كثير من الطرفين. وكان المشركون يقذفون بالمنجنيق والرماح والسهام على الجيش الإسلامي في محاولة لدحره، والتغلب عليه. غير أن هذا الجيش ظل مستمراً في الرد عليهم بكل قوة وعنف، وتقدم زائدة بن عمير الطائي، فأبلى بلاء حسناً حيث كان على المقدمة. فارتد المشركون، وانهزموا إلى داخل مدينتهم، فحصرهم القائد ابن القاسم، وشدد عليهم الحصار. وكان في ظنه أنه لن يطول بهم الأمد، إذ سينفذ ما لديهم من «غذاء مخزون، وماء محفوظ». وحينئذٍ سيجبرهم الجوع والعطش على الرضوخ والتسليم.

ولكن حصل عكس ذلك، حيث دام الحصار أكثر من شهرين كاملين. مما جعل ابن القاسم يعتقد أن الماء ليس مخزوناً عندهم، وإلا لنفذ من وقت بعيد. وحار القائد في أمره، ثم ألهمه التفكير أن يعمد إلى نقب سور الحصن، ليتمكن من دخول الحصن وفتحه.

(١) فتوح البلدان: ص٤٢٧. والكامل في التاريخ: المجلد الرابع، ص٥٣٨. وبطل السند: ص٣٤، و٣٥.

وهنـا – على ما تـذكر المصـادر – أتى رجل من داخل الحصن إلى المسلمين، وطلب الأمـان، فأعطاه ابن القاسم الأمان. ثم قـال الرجل: إن الماء يأتي داخل الحصن من جدول صغير يجري من نهر «بسمـد» فيـدخل المدينـة من مكان مخبـوء، لا يعـرفـه إلا أهل الحصن وحـدهم. وهم يجعلون الماء في حوض كبير يسمونه «التلاج»، ويشربـون منه. فدلّـهم على ذلك المكان الذي هو المقطع، أو مكـان العبـور المخبـوء، فغوّره المسلمـون، ومنعـوه عن المدينـة. ولما عطش الكفـار المحاصرون، نـزلوا على حكم القائد ابن القاسم، فـدخل الحصن، وقتل المقاتلة، وسبى الـذرية، وأسر سدنة البد جميعاً دون استثناء. وخضعت المدينة كلها، وكان ذلك سنة ٩٤ هـ.

ودخل المسلمون الفاتحون غرف المعبد وحجراته، فإذا هم يصيبون ذهباً كثيراً مما جاء به زوار ذلك البـد العظيم على مر السنين. فأمـر فاتح السند أن تجمـع تلك الأموال في بيت طوله عشرة أذرع، وعرضه ثمانية أذرع، بحيث تُلقى إليه من كوّة في سطحه.

وقـد بلغ من غنى الملتان، وكثـرة الـذهب فيها، أن سمّـاها العـرب «ثغر بيت الـذهب» تمييزاً لها من بقية الثغور.

وبعـد أيام قليلـة من فتح الملتان، والاستيـلاء على بيت الـذهب فيها، أرسل الفـاتح ابن القاسم سفينة محملة بهذه الأموال، فتجري بها عبر نهر السند، ثم تمخر عباب بحر العرب متجهة نحو الخليج بمحاذاة سواحل فارس، لتلقي بأحمالها في ثغر البصرة، حيث يبلغ بها المطاف دار أمير العراق وسائر المشرق: الحجاج بن يوسف الثقفي.

ونظر الحجـاج فيما حمل إليه من ثغر الملتـان، مما بعث بـه إليه فاتح السنـد محمد بن القاسم الثقفي، فكان عشرين ومائة ألف ألف درهم، ونظر في النفقة على العمليات العسكرية في فتح تلك البلاد، فـوجد أنه قـد أنفق ستين ألف ألف درهم. فقال: شفينا غيظنـا، وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم، ورأس «داهر»(١).

ومن خلال التأمل في قول الحجاج: «شفينا غيظنا، وأدركنا ثأرنا» نتصور أنه كان يعني بالجملة الأولى: استرجاع النساء الأسيرات، ويقصـد بالجملة الأخرى: الثأرللبطل بديل بن طهفة البجلي. ومع ذلك فما هذا التصور إلا من قبيل الاستنتـاج، ولربما يكون في محله، أو قد لا يكون.

---

(١) المصادر السابقة ذاتها، وبالصفحات نفسها على الترتيب. والعقد الثمين: ص١٧٧.

الكيرج مدينة الملك دوهر:

بعد أن فتح ابن القاسم مدينة الملتان، وأقـام فيها، أخذ يتطلع إلى غزو ما بقي من ممالك السند، وهو أقل من القليل: فكان لابد من تعبئـة الحملة، وإعداد العدة. وفي أثناء ذلك (أي في رمضـان سنة ٩٥ هــ) جاءه نبأ وفـاة ابن عمه الحجـاج بن يوسف الثقفي: أمير العـراق وسائر المشرق، على أثر مـرض ألمّ به، واشتد عليه. فكـان لهذا النبأ وقع أليم، وأثر بليغ في نفس البطل الشاب، وحزن لفقدان من كان سنداً له.

ومع ذلك لم تثبط عزيمة هذا البطل على الرغم من فـداحة المصاب الذي حل به، فقد عبّأ جيشه، وخـرج به من الملتان راجعـاً إلى مدينتي الرور وبغـرور، وكان قد فتحهما سـابقاً، فأعطى النـاس الأعطيات، ثم تـوجه إلى مـدينة «البيلمان» فـآثر أهلهـا السلامـة، وأعلنوا الطـاعة، ولم يقـاتلوه فأعطـاهم الأمان. ثم مضى إلى مـدينة «سرست»، وهي مغـزى أهل البصرة، وقد كان أهلها على شـاكلة أهل مدينة الديبل في القرصنـة واللصوصية، فسالموه، وطلبوا الأمان. فقـد ورد في كتاب «بطل السند»(١) ما يلي: فجَنحـوا للسلم، وطلبوا الأمان فأمّنهم على أن لا يقطعوا بحراً، ولا يخيفوا طريقاً، ولا يهاجموا راكباً.

وهنا لم يبق أمام ابن القاسم سوى مـدينة «الكيرج»، ويحكمها الملك «دوهر» الذي كان نظيراً للملك داهر، ويعدله في الشـهرة والسلطان. فـأتى القـائد ابن القاسم تلك المدينة غازياً، فخرج إليه الملك دوهـر برجاله وهم على ظهور الأفيـال، واندلعت الحرب، ودارت المعارك، وقاتل المسلمون قتـالاً شديداً فانهزم العدو، وهرب دوهـر، ولكن سيوف المسلمين لاحقته في مهربه فقتل. ونزل أهل المدينة على حكم الفـاتح ابن القاسـم، وقتل وسبى. وفي صدد هذا النصر والفتح قال الشاعر(٢):

نحـن قتلنـــــا داهـــــراً ودوْهـــــرا

والخيـلُ تَـــــــــرْدي مِنْسراً فَمِنْسرا (٣)

---

(١) ص٤٤.

(٢) فتوح البلدان: ص٤٢٧.

(٣) رَديَ: هَلك. والمِنْسَـر (بكسر الميم وسكون النون وفتح السين): الجماعة من الخيل. أما المَنْسَـر (بفتح الميم وسكون النون وفتح السين)، فمعناها: جماعة اللصوص. مادة «نَسَـرَ».

وهكذا كان فتح الكيرج شاهداً على نهاية الملك دوهر. كما كان دليلاً على زوال آخر مملكة في بلاد السند، حيث أصبحت البلاد المفتوحة جميعها خاضعة للمسلمين الذين قضوا على عبادة الأصنام والأوثان هناك.

السند ولاية إسلامية:

بعد عمليات الفتح الإسلامي بقيادة البطل محمد بن القاسم الثقفي، صارت السند والهند ولاية إسلامية، وجزءاً من أملاك الخلافة الأموية. حيث كان هذا الفتح في عصرها. ويومذاك دخل الإيمان في قلوب أهل هذه البلاد المفتوحة، وعلت كلمة الإسلام في ربوعها.

إن جهاد المسلمين وفتوحاتهم في العصر الأموي لم تقف عند حدود السند فقط، بل امتدت في مشارق الأرض ومغاربها. وفي هذا الصدد يذكر القاضي أبو المعالي المباركبوري الكلمة التالية:

«والحق يقال: إن سوق الجهاد كانت قائمة في بني أمية، ليس لهم شغل إلا ذلك، وقد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، برّها وبحرها من السند وسمرقند إلى الأندلس»(١).

ثم يورد بعد ذلك: «وكأنما كان النصر موكلاً بالمسلمين في كل غارة أغاروها، فما دخلوا بلداً إلا فتحوه، ولا توجهوا إلى قطر إلا أخذوه. وكان في عسكرهم الصالحون والأولياء والعلماء والتابعون. في كل جيش من جيوش بني أمية ينصر الله بهم دينه».

وبعد كل ما تقدم، فإننا نود التعقيب بملحوظتين:

الأولى منهما: أن الذين قاموا بفتح السند كانوا جميعاً من العرب المسلمين بغضّ النظر عن القبائل والبطون التي نسلوا منها، أو المدن والأمصار التي نشأوا فيها. وقد اجتمعوا على كلمة واحدة، وقلب واحد، تحت راية الإسلام، كما هو الشأن في الفتوحات الإسلامية كافة.

والأخرى: أنه لم يكن للعصبية القبلية عندهم باب تدخل منه، أو مكان تنبت فيه، كما حصل في الأندلس، وفي الحقبة الزمنية نفسها.

وخلاصة القول : هذه نظرة عامة في تاريخ فتح السند على يد القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفي.

❊ ❊ ❊

---

(١) العقد الثمين: ص١٨٠.

الفصل الثالث

محمد بن القاسم أميراً على السند



الفصل الثالث
محمد بن القاسم أميراً على السند
٩٤ - ٩٦ هـ

إن محمد بن القاسم الثقفي لم يكن فاتحاً للسند فقط، بل كان والياً، أو أميراً عليها. ولكنه لم يمارس صلاحية الإمارة (وقد أقره الحجاج عليها) إلا بعد أن استكمل عملية الفتح هناك، وصارت البلاد في قبضة يده.

وهنا اختلف الوضع، فهذا القائد العسكري يتحول من الميدان إلى تولي إدارة شؤون المجتمع بكل فئاته في هذه البلاد المفتوحة، والتي هي على حداثة عهد بالإسلام. وإن سياسة الناس (أو إدارة شؤونهم) لهي من الأمور الجسام، ولا يقوى عليها إلا أصحاب الهمم العالية، والعقول الراجحة، والصدور الواسعة. وقد اجتمعت هذه الصفات في شخص (الأمير) محمد بن القاسم، وهو في ريعان شبابه.

فلقد تولى هذا الشاب قيادة الجيوش، فكان جديراً بها، وأهلاً لها. فقالوا فيه:

ساس الجيوش لسبع عشرة حجةً

يا قرب ذلك سؤدداً من مولد

وهذه سياسة تحقق له فيها النجاح بفتح السند.

ثم تقلد منصب الإمارة، فكان حريصاً على نشر العدالة، وإعطاء الأمان للرعية، واحترام أعيان البلاد ورجالها. فقيل عنه:

ساس الرجال لسبعَ عشرة حجةً

ولِداته عن ذاك في أشغالِ

وهذه أيضاً سياسة توخّى فيها محبة الناس، فانجذبت إليه القلوب.

دار الإمارة في الملتان:

عندمـا استولى الفاتح ابن القـاسم على مدينة الملتـان، بنى فيها داراً للإمـارة، واتخذها مقراً له، ليتمكن من إدارة بلاد السند التي دان له جميع من فيها بالطاعة والولاء، وأقروا له بالفتح، وسلموا له بالأمر، ورغبوا فيه أميراً على بلادهم.

فكان من هـذا الأمير أن أعطى الأمان للصنـاع والتجار والعمال وعوام النـاس، وأوجد محكمة لرد المظالم، ومحاكمـة الذين حملوا السلاح وقاتلوا ضـد المسلمين. ثم أمر بالمناداة على العوام المتضررين بالحرب، والكسبة الصغار، والذين نُـهبت أموالهم أثناء القتال(١).

ثم فتح دار الإمـارة يستقبل فيهـا جموع الـوافـدين عليـه من مختلف أرجـاء البـلاد ونواحيهـا. فقد جاءت إليـه القبائل والجماعات تلـوّح بالـرايات، وتقرع الأجـراس وتدق الطبـول، والفرح يغمـرهـا. وكـان من عادات أهل السنـد أنهم إذا جـاءهم عظيم، أو ملك، يقـرعـون له الطبـول، ويـرقصـون على أنغـامها. والآن يحق لهم أن يفـرحـوا لأن الفتح الإسلامي قد حررهم من نير الظلـم والاستعباد، وضمن لهم هذا (الأمير) الفاتح الأمن على أنفسهم وعيالهم وأموالهم تطبيقاً لمنهج الإسلام وعدله.

وكان من جملـة الوافـدين أيضاً طـائفة من البراهمة، جاءوا حليقـي الرؤوس واللحى، ومثلوا بين يديـه، وقالوا: أيها الأمير إن مليكنا (داهر) كـان من البراهمة، وصلنا خبر قتله، وانتقـال المُلك منـه إلى العـرب، وقتل بعـض البراهمة أنفسهم وفـاءً لـه، وبعضـهم حلقـوا رؤوسهم ولحاهم، ولبسوا الملابس الصفراء، واعتكفوا في معـابدهم. وبما أن الله تعالى قد منّ عليك بملك هـذه البـلاد، فإننـا جئنا إليك أيها الأمير العـادل حتى تحكم بما تشـاء على الأحياء منا.

فقال الأمير ابن القاسم: حقاً إنهم أوفياء لمليكهم، وإنني أعطيهم الأمان بشرط أن يجلبوا لي كل من يقع في أيديهم من أتبـاع داهر. وقـد وفى البراهمة بعهدهم له، فجلبـوا له الرعـايا والاتباع، فعـاملهم معاملة حسنة، ومن تشرف منهم بـالدخول في الإسلام تـركه في سبيل حاله، وله ماله وعياله وضياعه. أما الذين لم يؤمنوا بالإسلام ديناً فقد فرض عليه الجزية. وكانـوا ثلاثة أصنـاف بحسب مستويـاتهم المالية والاجتماعية. فكـان الفرد من الصنف

---

(١) فتح السند «جچنامة»: ص١٩٨.

الأول الرفيع المستوى يدفع أربعين درهماً، والصنف الثاني أربعة وعشرين درهماً، والصنف الثالث إثني عشر درهماً. وقال لهم: اذهبوا الآن ومن يُسلم منكم بعد اليوم فلا جزية عليه. ومن أراد البقاء على دين آبائه وأجداده فعليه أن يستمر في دفع الجزية. فبقي بعضهم على دينهم، وأسلم بعضهم الآخر، فلم تؤخذ منهم الجزية، ولم تؤخذ منهم ضياعهم وخيلهم وأموالهم(١).

البراهمة وجباية الخراج:

لقد أصدر الأمير ابن القاسم أمراً خاصاً بالبراهمة، حيث عمد إلى تعيين كل واحد منهم في منصب مناسب له، وأجزل لهم العطاء. وكان يعلم أنهم لا يميلون إلى الحقد والكراهية، والإضرار بالآخرين. وقال لهم: كنتم سابقاً على علم بأموال المدن والبلاد، فعليكم أن تعلمونا عن كل فرد من الأعيان والشخصيات الاجتماعية، حيث يهمنا أن نتعرف به، وسيكون له التقدير والاحترام الاجتماعي.

ولما كنت مصدّقاً لوفائكم وأمانتكم، فإنني أوكل إليكم عملية الإصلاح، وأضع المسؤولية بعهدتكم في تعيين الدهاقنة، ورؤساء المناطق، وجباة أموال الدولة، ليضبطوا الأموال في المدن والقرى والأرياف. على أن تكونوا أنتم وإياهم جميعاً تحت إمرة مقدّمي المدن (الحكام) من كبار رجالنا، الذين عهدت إليهم بتولي إدارة المدن، والمحافظة على مصالح الناس فيها. ولتعلموا أن عملنا هذا سيؤدي بنا إلى ضبط البلاد، وإشاعة الأمن والنظام في ربوعها.

ثم توجه البراهمة إلى القرى ونادوا: أيها المعارف والمشاهير ليكن في علمكم أن داهراً قد قتل، وقد انتهى عهد الكفار، وأصبحت جميع نواحي الهند والسند تحت السيطرة العربية ولا فرق بين مدينة وقرية. فالكل يجب أن يدين بالولاء للعرب، ويطيع الخليفة السلطان العظيم. لقد أرسلونا إليكم حتى نشرح لكم الأمور، وننفذ أوامرهم. فمن دفع الجزية فهو آمن، ماله آمن، وعياله آمنون(٢).

وهنا انصاعت القرى والمدن للنداء، وسارعت إلى تقديم الجزية بحسب المقرر على المستويات الاجتماعية التي سبق الحديث عنها.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٩٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٠١.

تنظيم الإدارة :

أصــدر الأمير ابن القاسـم أوامــره بتعيين مقدّمي المدن الـذي عهد إليهم بإدارة شــؤون الناس فيها(١)، وهؤلاء هم:

١ – **ودّاع بن حميـد البحري** : (نقلـه من الـديبل)، وعينـه أميناً ووالـياً على مـدينـة برهمناباد. وأوصاه أن يعهد بأعمال القرى والقصبات إلى أربعة من كبار التجار من أهل البـلاد، وأن يوضحـوا لـه دائماً جميع الأمـور الجزئية والكليـة، وعليهم أن لا يقوموا بأي عمل وحدهم، أو فيما بينهم إلا بمشورته وبعد تلقي أوامره.

٢ – **نوبة بن دارس** : وقد جعلـه على حصن راؤر حتى تتم له السيطـرة المحكمة على تلك المنطقـة، وعليـه أن يقـوم بتهيئة السفن دائماً، وتفتيش كـل سفينة قـادمـة أو مغادرة ومـراقبتها، فإذا وجـد سفينة تحمل السلاح فعليـه مصادرتـه، وجلبه إلى راؤر. وعهد بالسفن المبحرة في أعالي المياه إلى محمد بن زياد العبدي.

٣ – **هذيل بن سليمان الأزدي** : وقد أعطـاه ناحيـة قصة «كجة» مـن بلاد الملك راسل سابقاً، والتي كان قد امتلكها الملك دوهر ملك الكيرج قبل مصرعه بمدة قصيرة.

٤ – **نباتة بن حنظلة الكلابي** : وجرى تعيينه والياً على دهليلة التي تبعد نحو أربعين فرسخاً عن برهمنا باد، وأوصاه أن يخبره كل شـهر عما يستجد في تلك المنطقة.

٥ – **قيس بن عبدالملك بن قيس العبدي، وخـالد الأنصاري** : حيث عيّنهما على رأس ألف مقاتل وبعثهما إلى سيوستان.

٦ – **مسعود التميمي، وابن شيبـة الجديدي** : وقد عهـد إليهما بأعمال البيرون والديبل، وجعل في خدمتهما من يصلح لضبط شؤون الأرياف، والسيطرة على أحوالها.

٧ – **المولى «مليح»** :وهـو من مـوالي بني بكـر بن وائل، إذ جعلـه عـامـلاً على منطقـة «أشبهار» الواقعة إلى القرب من وادي السند، وكـانت تستوطنها وتجول فيها القوة الرئيسة لقبائل الزط، ومعهم قوم آخرون. وقد أقام في هذه المنطقة أيضاً جماعة من العرب، منهم ذكـوان بن علوان البكـري، وقيس بن ثعلبة، مع ثـلاثمائة من أتباعهم ومـواليهم، وصحبـوا أبناءهـم ونساءهم، واستقـروا هنـاك، شأنهم في هـذا شأن القبائل العربية الأخرى التي سكنت في جهات أخرى من هذه البلاد المفتوحة.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٠٧.

العطايا والهدايا:

من جـراء هـذا الفتح العظيم، حصل الأمير ابن القـاسم على الكثير من الغنـائم والمتـاع والأموال والسبايا. ولهذا فتح كفيه، وأخذ يكرم كـل من وفد عليه، أو نزل بضيافته فرادى وجماعات. ويعطي عن طيب نفس. وفي ضوء هذا التصور، يبدو أن الكرم من خصال قومه بني ثقيف بل هو طبيعة في نفوسهم، ومتوارث فيما بينهم.

فهذا الحجاج مثلاً، يذكرون أنه «كـان ينفق بلا تردد، ويعطي بلا حساب». ويقول عنه أبو الحسن المدائني: كان الحجاج بن يوسف يضع ألف خِوَان(١) في كل يوم من أيام شهر رمضان، وفي سائر الأيام خمسمائة خوان، على كل خوان عشرة أنفس(٢).

وإذا صح ما ذكره الرواة والأدباء عن كرم بني ثقيف فإن أمير السند جاء على غرارهم، ونسج على منوالهم كما يقولون، فلا غرابة أن يأتي الفرع على شاكلة أصله.

لقد أعطى هذا الأمير، وأجزل العطاء. وتناقلت الركبان أخبار ما كان يفيض به من وفرة الجود وسعة الكرم. فأتى إليه الطالبون لمعروفه من الشعراء وسائر الناس فنالوا ما كانوا يؤملون من الأعطيات والأمـوال. ومن أجل هذا مدحه الشاعر «أبـو الجويرية» (عيسى بن أوس العبدي)، قائلاً(٣):

قل للـــــذين بـــــواسط وبغيرهـــــا
ممـن مســــائلــــه تـــــردُّ وتنجـحُ

السنـــــدُ! إِئتِ السنـــــد إن أميرهـــــا
بحـــــرٌ يطـمُّ على العفـــــاةِ ويطفـحُ

مـــــازال يُعطـي قـــــاعـــــداً أو قـــــائماً
حتـى حسبتَ أبـــــا عقيلٍ يمـــــزحُ

---

(١) الخِوَان (بكسر الخاء أو فتحها): ما يوضع عليه الطعام ليؤكل.

(٢) العقد الفريد: ج٥، ص٢٧٦.

(٣) بطل السند: ص٣٨.

فالشاعر في هذه الأبيات يغري أهل مدينة واسط، مثلما يغري أيضاً أهل غيرها من المدن والأمصار، بأن يقصدوا أمير السند محمد بن القاسم، فهو بحر يفيض على طالبيه وقاصديه. وهو يعطي في كلتا حالتيه في دار الإمارة: قاعداً أو قائماً، ومازال يعطي حتى حسبنا أن عطاءه جاء على سبيل المزاح في القول، دون الفعل.

ومادام الحديث يدور حول سخاء هذا الأمير وعطائه، فلابد من الإشارة هنا إلى تلك الهدايا التي كان يبعث بها إلى العراق والشام في الوقت الذي يراه مناسباً. وهي هدايا غريبة وطريفة.

فالغريبة منها: هي قطعان من الجواميس الهندية (التي تعد بالآلاف)، بعثها هدية منه إلى الحجاج في العراق، فكان الحجاج أن أرسل منها أربعة آلاف جاموسة وجاموس إلى الخليفة الوليد بن عبدالملك في دمشق. وقد استخدم المسلمون هذه الثروة الحيوانية في أعمال الفلاحة، والاستغلال الاقتصادي بخاصة في سهول العراق وأراضي أنطاكية والمصيصة في شمال بلاد الشام، فنفع الله بها، مما زاد في كثرة المحاصيل من الغلال والثمار، التي عادت على الناس بالرخاء الوفير والخير العميم.

وأما الطريفة: فكانت هدية بشرية قوامها عدد كبير من الهنود الزط والسيابجة الذين أرسلهم إلى الحجاج، فأنفذ الحجاج معظم هؤلاء الناس إلى دار الخلافة بدمشق. فيأمر الخليفة الوليد بنقلهم إلى أنطاكية ليعملوا هناك في استصلاح الأراضي الجبلية وفلاحتها، أو غرسها بالأشجار.

محمد بن القاسم والأميرة «سيتا»:

من «سيتا» هذه؟ ومن تكون؟ وما علاقتها بالأمير محمد بن القاسم؟

* إنها فتاة سندية ذات فتنة وجمال، من بنات الملوك، تنعم بطيب العيش، وهناءة الحياة، إنها ابنة الملك داهر. لقد امتنعت عن حرق نفسها يوم قتل أبيها، وآثرت الحياة. فكان من نصيبها أن وقعت في الأسر لدى جيش المسلمين يومذاك. وجيء بها إلى القائد الشاب محمد بن القاسم، فأطلق سراحها، وأكرمها، ومنحها الحرية، وأعطاها الأمان. ولكنها بعثت في نفسه شيئاً يدعو إلى التقدير لها والإعجاب بها.

ولما كان الحب عاطفة نبيلة، والنفس البشرية تهوى الجمال، فقد تولد في نفس هذا القائد العربي ميل نحو هذه الأميرة، فأحبها، لأنها «ملكت شغاف قلبه». ولكنه بشهامة الرجال، ومروءة الأبطال ما تعلق منها بريبة، ولا همّ معها بشيء يخفض من مكانته، أو يُنقص من قدره. لقد كان شريفاً، حيث صان كرامتها وعفتها على أكرم ما تصان بنات الأشراف وكرام الناس.

وبالمقابل، فإن الأميرة سيتا، كانت تُبدي إعجابها بهذا الأمير العربي، وتُظهر حبها له، مما زاد في تعلق الحبيب بها والعطف عليها، حتى توثقت عرى المودة بينهما من جراء هذا الحب الذي لم يستطيعا إخفاءه، أو التستر عليه حتى ذاع سره في البلاد، وشاع خبره بين الناس.

وحقيقة الأمر، أن هذه الأميرة كانت تتظاهر بهذا الحب لغرض في نفسها، حيث أن مصرع أبيها على يد رجل من رجال ابن القاسم قد أوغر صدرها، وملأ قلبها، مما جعلها تشترك في التدبير والتآمر مع الفلول المتناثرة من أمراء البلاد الذين انشأوا - في الخفاء - فرقة هندية عسكرية تسمى «راجبوت سماس»(١) Rajput Sammas، كانت تعمل للتخلص من المسلمين، وإعادة البلاد إلى سابق عهدها تحت حكم البراهمة الهندوس بزعامة شقيقها جي سيه بن داهر. ومما زاد الطين بلة، أنها شاركت في خطط سرية مريبة بما لم يترك مجالاً لابن القاسم في تبرئتها من الخيانة لمسيرة الفتح، بدافع الثأر لأبيها، ولأسرتها المنكوبة، وبلادها المغلوبة، فأخذته الحيرة في أمرها. إذ أن قضية كهذه يتوقف عليها مصير جيش، بل مصير أمة. فما كان منه إلاّ أن اتخذ قراره، وأمر بإرسالها أسيرة إلى دار الخلافة في دمشق.

ولكن تبقى قصة هذا الحب واردة. وإن أحداثها قد وقعت في مدة زمنية بدأت من يوم اللقاء والتعارف بينهما، وامتدت إلى يوم التباعد والفراق، حيث بعث بها أسيرة إلى دمشق عاصمة الخلافة.

ومع هذا، فإن قصص العشاق أو العاشقين في تاريخ العرب وأدبهم، تدفعنا إلى قراءتها،

---

(١) مجلة المنهل: السنة الرابعة، الجزء العاشر، المجلد الرابع، أكتوبر ١٩٤٠م، ص٩. وأيضاً: د. حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته، دار المعارف بمصر، ١٩٨٠م، ص١٥٥.

والتعاطف معهـا بسبب عنصر التشويق الفني فيهـا، الذي يضفي عليها هـالة من الـروعة والخيال. وقصة هـذين العاشقين (ابن القاسم وسيتا) تدخل في هـذا الإطار، ولكن أطياف هذا العشق فيها ظلال توحي بشيء ما ! بشيءٍما !

وهنا نتخيل، أو نزعم أن القارىء قـد صار مهيئاً نفسياً لمتابعة هـذه القصة، ومشاهدة ألوان طيفهـا، ورؤية الظلال تـرتسم حولها، ليصل إلى معرفـة ذلك الشـيء المبهم الذي لن يبقى رجماً بالغيب.

وللمحافظـة على القصة المذكورة وتطـور أحداثها، فـإننا نرغب في نقلهـا على حالها عن اللغوي الأديب محمـد عبدالغني حسن، الذي جـاء بها في صفحات متباعدة في كتـابه «بطل السند». إلا أنـه كتبها بأسلوب فني رفيع لما فيه من رقـة الكلمة، وحلاة القول، وجـاذبية التعبير، وجمالية التناسق. حيث يقول بالنص:

ولقد كانت الأميرة «سيتـا» تُظهر للأمير العربي الشاب محمد بن القـاسم ما تحببت به إليـه حتى شغفته حبـاً، وكـان يبدي لها مـن الاهتمام بها والعطف عليها، والمودة لها، مـا شهدت به سماء الهند وأرضها.

والحق إن إبنة الملك المقتـول لم تتظاهر بحبهـا للأمير العربي بطل السنـد إلا لتتخذ من ذلك الحب الظاهر وسيلة إلى غرضـها، وسبباً لبلوغ أهـدافها. فكانت تتفاهم معه بالإشارة، وتخافيه بلحن العبـارة، في لَكْنَة(١) سنـدية، ولَوْثـة(٢) غير عربيـة، لعلها تتلقف من بين شفتيه الكتومتين خبراً يفيد المخامرين من قومها، وينفع المتآمرين خفية من بني جنسها.

وحـاولت سيتا أن تخْفي شأنها قـدر مـا وسعها الإخفـاء، حتى لا ينفضح أمرهـا، أو ينكشف سرها، فتبوء خطتها بالخيبة، وتنقلب أمورها إلى اسوأ منقلب.

ولكن بصيرة القائد الشـاب كانت أهدى مـن الشمس حين تجد فيها الأبصارُ هـداية إلى معالم الطـريق، فأدرك من نظراتها مـا تخفي سريرتها، ورأى في عينيهـا دليلاً على خبـايا فؤادها، ورابـه من أمرها أنها كانت تخرج في الليالي المتشحة بـالسواد، تطأ الثرى في رفق،

---

(١) اللكنة : عدم القدرة على الكلام والنطق الصحيح.

(٢) اللوثة (في الأصل: مَسٌّ من الجنون). والمراد بها هنا: العي، والتخليط بالكلام.

وتتسلل بين الشجر في حذر، وتصلُ الخطى في نَفَسٍ مكتـوم، ثم تعود بعد ذلك كأنما انزاح عن صدرها همٌّ ثقيل.

وذات ليلة خرجت سيتا كعادتها، وكان ابن القاسم قد بثّ لها من الأرصاد من يتابعون خطوهـا، ويقفون على جليّة أمـرها، فسُمّـرت عيونهم المتفتحةُ على شبحهـا المجلّل بسواد الليل، وظلوا خلفها لا تنحرف عنها أبصارهم، ولا يحيد عن مسيرها مسيرهم، إلى أن رأوْها تُلاقي ثلاثة من الـرجال لقاءً خفيفاً سريعاً، امتدتْ فيه يدها بشيء، وامتـدت فيه يد أحدهم بتلقف ذلك الشيء على حذر، في سير حثيث يـدنو من الجري، وعادت الفتـاة أدراجها، وهي موقنة أن أحداً غير الليل والثلاثة الشخوص لم يشهدها، وأنها آمنة في كنف الظلام الحالك، من أن تأخذها عيون المتطلعين، وأبصار المتجسسين.

وعاد عيـون ابن القاسم ينبئونه بما رأوا، ويخبرونـه بأمر الفتاة المريبـة التي تتخذ من ملاءة الليل الأسود ستراً لخططهـا السود. واستدعاها ابن القـاسم، وأخذ معها في الحديث وأعطى، وأبدى وأعاد، إلى أن استيقن أن الأميرة ممالئة، وأن العطف الذي أبداه نحوها كان في غير موضـع، وأن الحب الذي كانت تتظاهر به كان ستراً لأخبث الأهداف، وأن رغبة الثأر لأبيهـا تتحرق في قلبهـا، فـودّ لو أن أدب الحرب في الإسـلام كـان يُـجيزُ قتل امـرأة! إذن لتخلّص منها بأيسر طـريق كما يُتَخلّص من الجواسيس. ولكنه رأى أن يبعث بها أسيرة إلى عاصمة الخلافة في دمشق، لعل الله يُـحـدث بعد ذلك أمراً.

وفعلاً كـان الأمر، وقد حصل. فالقصـة لم تنته بعد، إذ سيكون لها شأن آخـر في حياة فـاتح السنـد والهنـد، وإن تغير مسرح الأحـداث، وانتقـل من السنـد إلى دمشق. وسيأتي الحديث عن ذلك الشأن لاحقاً.

زواج محمد بن القاسم:

تفيد المصادر التاريخية في هذا البحث أن محمد بن القاسم قد تزوج، وكان له ولدان هما «عمرو» و«القاسم». وهنـاك ثلاث روايات تتفق في هذا الموضـوع، لكنها تختلف في تعريف من هي التي تزوجها؟ ومـا نسبها؟ ثم نسأل: متى حصل هذا الزواج؟ هل كـان قبل ذهابه إلى فتح السند أو بعده؟ هل كان قبل قصة الأميرة سيتـا أو بعدها؟ إن الإجابة عن مثل هذه الاسئلـة، لا تصل بنـا إلى درجـة اليقين، بل سيكـون فيهـا شـيء من الاضطـراب أو عـدم الوضوح. ومع ذلك لابد من المحاولة.

أما الروايات الثلاث، فإن ثنتين منها وردتا في كتاب «فتح السند»(١)، والثالثة جاءت في كتاب «العقد الثمين»(٢).

فالرواية الأولى تقول: «كان محمد بن القاسم ابن عم الحجاج وصهره». وكلمة «صهر» لغةً، معناها: «القريب بالزواج». وعلى هذا الأساس يكون ابن القاسم قد تزوج من ابنة الحجاج **أو** من أخت الحجاج واسمها «زينب». وحرف العطف «أو» الوارد هنا، يفيد اختيار واحدة من الاثنتين: إذا لا يصح الجمع بينهما.

أما الرواية الثانية، فتدل على ما يلي: «تزوج محمد بن القاسم من بني سعد بن تميم، وأنجب ولدين».

وأما الرواية الثالثة، والأخيرة فجاءت على هذا النحو: «والمشهور أن الحجاج زوّج بنته منه (من محمد بن القاسم)، وقال بعض الفضلاء: اختاره الحجاج ابنُ عمه ليكون زوجاً لأخته زينب التي فتنت الشعراء جمالاً وعقلاً وعرض عليها أن تتزوج من محمد، وهو يومئذٍ أشرف ثقفي».

فهذه الرواية تنسجم مع الرواية الأولى في ذكر حكاية الزواج. ومن باب الاحتمال، يمكن أن يكون ابن القاسم قد تزوج من أخت الحجاج، لا من بنت الحجاج، حيث أن ابن حزم(٣) قد ذكر اسماء أربعة أولاد للحجاج فقط، وهم من الذكور دون الإناث. والمصادر الأخرى أوردت اسم أخته صريحاً. فلماذا لم تذكر اسم بنته، إذا كانت له بنت؟

ومع كل هذا، فإن تحديد من هي زوجة محمد بن القاسم؟ فمسألة فيها خلاف. ولكن من قبيل التكهن، تبقى محصورة بواحدةٍ ليس إلاّ، وهي: إما أن تكون ثقفية. وإما أن تكون تميمية.

ونعود الآن إلى ولدي محمد بن القاسم أمير السند، اللذين بلغا مبلغ الرجال في عهد الخليفة هشام بن عبدالملك (١٠٥ – ١٢٥ هـ)، وتقلدا مناصب رفيعة في مجال الفتوح والإدارة.

---

(١) ص٩٤ وص١٨٢.

(٢) ص١٨١.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ج١، ص٢٦٧.

فالأول منهما هــو عمرو بن محمد بن القاســم، كان صنواً لأبيه، وبلغ مكــانة في حسن السياسة، وتدبير الممالك وفتوح البلاد. كان أولاً قائداً للفرسان عند الحكم بن عوانة الكلبي والي السنـد، وكان الحكم يفـوّض إليه عظيم الأمـور، ويقلده جسيم الأعمال، فبعث بـه إلى غزو بلاد الهند بعد أن كفر أهلهـا، فتغلب عليهم وظفر. وبعد قتل الحكم في إحدى الغزوات تسلم عمرو بن محمد ولاية الهند بعهدٍ من الخليفة في دمشق.

ولما صار عمـرو بن محمد بن القـاسم الثقفي والياً على السنـد (من ١٢٢ - ١٢٥ هــ)، استخلص مـا كـان قـد غلب عليـه العـدو، واستقامـت له البـلاد، فبنى مـدينـة سمّـاها «المنصورة»، ونزلها في منزل الولاة، ورضي الناس بولايتـه التي استمر فيها عاماً آخر، بعد المدة المذكورة، حيث مات في سنة ١٢٦ هــ(١).

وأما الولـد الثاني، فهو القاسم بن محمد بن القاسم الثقفي، وأخبـاره قليلة، والمعروف منها أنه قـد ولي البصرة، وقد مدحه عدد من الشعـراء(٢). ومن المرجح أن ولايته كانت في أيام الخليفة الوليد بن يزيد (١٢٥ - ١٢٦ هــ)، أو ما بعده بقليل.

أنباء مفاجئة:

لقد وردت إلى أمير السند أنبـاء مفاجئة من العراق والشـام، حيث حصلت فيهما أحداث لم تكن سارة بالنسبة إليه. ومنها: موت الحجاج، ثم وفاة الخليفة الوليد، فتوليّ سليمان بن عبـد الملك زمام الخلافـة فيعـزل أمير السند عن إمـارته، بعـد ذلك يأمـر بقتله. وإن هــذه الأحداث تحتاج إلى شيء من التفصيل لمعرفة ما ترتب عليها من نتائج.

توفي الحجاج أمير العراق، في رمضان سنة ٩٥ هــ، بعد مرض ألحّ عليه. وعندما وصل نبأ وفاته إلى محمـد بن القاسم أمير السند، تأثر كثيراً، واشتـد به الحزن والقلق، ودخل في نفسه الخوف على مركزه في الإمارة، وســاورته الهواجس والظنون في أن يلحق به شيء فيه ضرر له، بعد رحيل ابْن عمه: ذخره وسنده.

وكان الحجاج قبيل موته قد أشار على الخليفـة الوليد بحرمان سليمان بن عبدالملك من

(١) العقد الثمين: الصفحات ٢٥٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧. والفتوحات الإسلامية: الجزء الأول، ص١٨٩.

(٢) فتح السند «ججنامة»: ص٩٤.

ولاية العهد(١). فحصل الجفاء الشديد بن سليمان والحجاج، وأدى إلى العداوة بينهما. فحفظ سليمان هذه العدواة للحجاج في قلبه، وبلغ به الأمر أنه صار لا يطيق ذكر بني ثقيف في مجلسه.

وبعد موت الحجاج ظهرت أحقاد دفينة انعكست آثارها على الأمير ابن القاسم في دار إمارته في السند. وسنعرض لها بعد قليل.

ونعود إلى الخليفة الوليد، فقد مات في جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ، أي بعد تسعة أشهر من وفاة الحجاج قبله. وكان هذا الخليفة باراً بالحجاج وقومه، ومعتمداً عليهم. وقد جزع ابن القاسم لوفاة الوليد، وحزن من أجلها.

وكان الوليد قبل وفاته بعامين تقريباً، قد جنح إلى التفكير في عزل أخيه سليمان من ولاية العهد، وإسنادها إلى ابنه الأكبر عبدالعزيز بن الوليد. وعندما نضجت الفكرة في ذهنه، دعا الناس لتأييدها، والأخذ بها. فامتنع عليه أكثرهم، ولم يستجب إليه في هذه الدعوة إلا الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق، والقائد المجاهد قتيبة بن مسلم الباهلي، وخواص من الناس، وعدد من الشعراء الذين سارعوا إلى الترويج لها، وتحريض الخليفة على تطبيقها.

وإزاء هذا الموقف الحرج، تقدم إلى الوليد بعض خاصته من أهل الرأي والمشورة، ونصحوه أن لا يتخذ الشدة والعنف سبيلاً إلى تحقيق مراده في عزل أخيه سليمان، ولكن عن طريق استدراج سليمان بالمودة واللين، والرغبة إليه في التنازل عن ولاية العهد، والمبايعة لابن أخيه عبدالعزيز بن الوليد. وقد وجد الوليد في هذه النصيحة حلاً للمشكلة، غير أن نية الغدر في العزل لاتزال مخبوءة في نفسه، وإنه يتحيّن الفرصة لتنفيذها، إذا لزم الأمر.

وبناء على ما تقدم كتب الخليفة الوليد بن عبدالملك إلى أخيه سليمان بمدينة الرملة في فلسطين، يستدعيه إلى دار الخلافة بدمشق ليأخذ منه إقرار التنازل عن ولاية العهد، فاعتل سليمان، أو أظهر العلة، فأراد الوليد أن يسير إليه بنفسه، وأمر الناس بالتأهب للسير معه،

---

(١) كان الخليفة عبدالملك بن مروان (ت سنة ٨٦ هـ)، قد عهد بالخلافة من بعده لولديه: الوليد أولاً، وسليمان لاحقاً. وكتب بالبيعة لهما عهداً أنفذه إلى الولايات والأمصار، فبايع الناس جميعاً عليه.

للتعجيل بأخذ التنازل من سليمان، ولكن الموت حال بين الوليد وأمنيته، فلم تتم محاولته لعقد ولاية العهد لابنه عبدالعزيز(١). ومات الوليد. وهنا صارت الخلافة من حق سليمان.

خلافة سليمان بن عبدالملك (٩٦ - ٩٩ هـ):

تولى سليمان الخلافة في النصف الثاني من جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ، ومات سنة ٩٩هـ. فكانت مدة حكمه ثلاث سنوات.

ولاته : أصدر الخليفة سليمان أوامره بتعيين: يزيد بن المهلب بن أبي صفرة والياً على العراق، بعد غيابه عشر سنوات عن المسرح السياسي، وتعيين يزيد بن أبي كبشة السكسكي والياً على السند، وعزل محمد بن القاسم الثقفي.

الأحداث الكبرى في عهده: كانت في عهد سليمان أحداث خير وشر. وهي أحداث كبرى على الصعيدين: الإيجابي، والسلبي.

فأحداث الخير: أنه رفع المظالم، وأخرج المسجونين في البصرة، ووجّه أخاه مسلمة بن عبدالملك على الصوائف، غازياً بلاد الروم حتى وصل القسطنطينية، ثم إنه عهد، وهو يحتضر، بالخلافة من بعده إلى ابن عمه عمر بن عبدالعزيز بن مروان، وأمر الناس بمبايعته.

وأحداث الشر: أنه أوجد أكبر ثلمة في الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً، حيث لقي ثلاثة من القادة الأبطال الفاتحين مصارعهم على يديه، أو بإيحاءٍ منه.

وأول هؤلاء الأبطال الميامين: البطل الشاب محمد بن القاسم الثقفي، فاتح السند وأميرها، والذي زرع أولى نبتة للإسلام في شبه القارة الهندية. ولسوف نعرف، بعد قليل، تفاصيل أكثر عن كيفية قتل هذا الفتى الثقفي المغوار.

أما الثاني: فهو القائد المجاهد قتيبة بن مسلم الباهلي، فاتح سمرقند وبخارى وفرغانة، والذي رفع الله به راية الإسلام في أواسط آسيا حتى بلاد الصين.

وأما الثالث منهم: فهو البطل المقدام عبدالعزيز بن موسى بن نصير والي الأندلس،

---

(١) بطل السند: ص٤٩.

والذي أكمل بعد أبيه فتح عدة مدن أنـدلسية إلى الغرب من اشبيلية، وضبط البلاد، وحمى ثغورها.

موقفه من الحجاج وما ترتب عليه:

كان سليمان يكـره الحجاج ويحقـد عليه لسبب: هـو أن الحجاج كـان على رأس أولئك الذين وافقـوا على خلع سليمان من ولاية العهد، والإتيان بعبـد العزيز بن الوليـد بدلاً منه. وربما كان سليمان أيضـاً يعتقد أن فكـرة خلعه، أو عـزله، إنما جـاءت من تـدبير الحجاج نفسه، فارتضاها الخليفة الوليد منـه. ولذلك أضمر سليمان العداوة للحجاج والحقد عليه. وكان في نيتـه أن يقبض على الحجاج في يوم ما، لـولا أن الله عجّل بوفاة الحجـاج قبل وفاة الوليد، فكان الموت نجاة له من وصول سليمان إليه والإيقاع به بضربة سيف قاتلة.

وعنـدما تـولى سليمان، صبّ جـام غضبه على قـوم الحجاج وعمّـاله وكتّـابه، فأمـر بحبسـهم وتعذيبهم والتنكيل بهم. وكان عقابهم هـذا بسبب الحجاج، لكن الحجاج قد مات، وانتهى أمره.

قال أبـو الحسن المدائني: دخل يزيد بـن أبي أسلم كاتب الحجاج على سليمان، فقـال له سليمان: أترى الحجاج استقـر في قعر جهنم، أم هو يهوي فيهـا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج يأتي يوم القيـامة بين أبيك وأخيك، فضعه من النار حيث شئت! قـال: فأمر به إلى الحبس، فكان فيه طوال ولايته(١).

ومن ناحية أخرى، كان سليمان قد استعمل يـزيد بن أبي كبشة والياً على السند، وأمره أن يعتقل محمد بن القاسم، ويعبث به مقيداً إلى العراق. ولما وصل هذا الوالي إلى دار الإمارة بالملتان قبض على محمـد بن القاسم، وأخذه مكبلاً بالحديد، مقيـداً في الأغلال، وألقى به في أيدي جماعـة من حرسه ورجالـه الذين لا يرحمون، فقـاموا بضربه وتعذيبـه، ثم حملوه وجاءوا به إلى مدينة واسط في العراق، وسلّمـوه إلى عامل الخراج هناك، بناء على أمر سابق من الخليفة سليمان نفسه.

---

(١) العقد الفـريد: ج٥، ص١٧٤. والمقصـود بقوله: «بين أبيك وأخيك»: عبـدالملك بن مروان، والـوليد بن عبدالملك.

أما يـزيد بن أبي كبشة الذي قـام بهذا العمل في أول يوم وصل فيه إلى السنـد، فلم يكتمل له الفرح بمنصب الولاية، ولم يهنأ به. فقد مات بعد قدومه أرض السند بثمانية عشر يوماً(١).

ونعود إلى متابعـة الحديث عن هذا البطل الأسير. إن بطل السند صـار يرزح في الأغلال والقيود، وهو لا يعرف سبباً لكل هذا الذي حصل له، ونُكب به.

إن المصادر التاريخية التي رفدت هذا البحث، تدل على أن هذا البطل المقدام لم يسـىء إلى الخليفة سليمان يوماً مـا. كما أنه لم يشارك في قضية عزله عن ولاية العهـد. ثم بالإضافة إلى هذا وذاك، لم يكن البطل ابن القاسم ظـالماً في ولايته، أو متهاوناً في جبايـة خراجها، ولم يتخذ لنفسه مكاناً عصيّاً على غيره. لقد كان بعيداً عن ذلك كله.

نعم كـان ابن عمـه الحجاج قـد أسـاء إلى سليمان، ولكن مـا علاقـة ابن القـاسم بهذه المسألة؟ وكيف يجني غيره ويعذب هو؟ فالله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾.

إن ابن القاسم على ما وصل إليه من حال يومذاك، ينطبق عليه قول الشاعر الذي قال:

جـــانيك من يجنـي عليـك وقـــدْ
تُعـدي الصحـــاحَ مبَـــاركُ الجُرْبِ (٢)
ولـــربّ مـأخـــوذٍ بـــذنـب عشيره
ونجـا المُقـــارفُ (٣) صـــاحبُ الـــذَّنْبِ

مأساة محمد بن القاسم ونهايته:

عاش ابن القاسم مأساته من خلال حدثين، أو سببين هما:

١ - **حبسه في واسط وتعـذيبه** : بعد القبض على هـذا البطل، والإتيان بـه إلى العراق، تسلّمه صـالح بن عبـدالرحمن، ورماه في سجـن واسط، وأخذ في تعـذيبه، والانتقـام منه

(١) فتوح البلدان: ص٤٢٨. والكامل في التاريخ: المجلد الرابع، ص٥٨٩. وبطل السند: ص٥٢.

(٢) بَرَكَ البعيرُ: أناخ في موضعه فلزمه. والجُرْب: جمع أجرب، وهو الذي أصابه الجرب.

(٣) المُقارف: الذي اقترف ذنباً.

استرداداً لثأر قديم له عند بني ثقيف طال انتظاره. إنه ثأر دفين بين صالح بن عبدالرحمن والحجاج بن يوسف الثقفي. فما أصل هذا الثأر؟ وما سببه؟ وقبل الإجابة عن هذين السؤالين لابد من معرفة من هو صالح هذا؟ وما هي طبيعة عمله سابقاً؟

إن صالح بن عبدالرحمن مولى إمرأة من بني مرة تسمى «عُتْبَة» وكان يجيد الفارسية. وعندما أمر الخليفة عبدالملك بن مروان بتحويل الدواوين من الرومية والفارسية إلى العربية، قام صالح هذا بتحويل الدواوين عن الفارسية(١). وبقي عمله محصوراً في هذا المجال في ولاية العراق، واستمر مواظباً عليه.

وبعد هذا التعريف البسيط بشخصية صالح بن عبدالرحمن، نعود إلى الموضوع الرئيس: موضوع الثأر لمعرفة سببه، وأصله.

عندما تولى الحجاج إمارة العراق، كانت حروب الخوارج على أشدّها في البصرة وسوادها. وكانت هذه الحروب تقضّ مضاجع الأمويين، وكادت أن تعصف بهيبة الدولة وتقوّض أركانها، فحمل الحجاج على الخوارج حملة لا هوادة فيها، حتى بلغ به الأمر أنه لا يُؤتى إليه بخارجي إلا قتله دونما سؤال.

وكان لصالح بن عبدالرحمن أخ اسمه «آدم بن عبدالرحمن» مال إلى الخوارج، فأخذ مذهبهم، وسار في تيارهم، واشترك في القتال معهم. فلما وقع في يد الحجاج، لقي منه ما يلقاه كل خارجي، وهو القتل(٢).

ولهذا حزن صالح بن عبدالرحمن على أخيه آدم حزناً شديداً، واختزن في قلبه بغضاً للحجاج وحقداً عليه، حتى تحين الفرصة المواتية للثأر والانتقام. لكن الحجاج مات قبل أن يدرك صالح منه ثأراً، وقبل وصول سليمان إلى الخلافة. ومن هنا تحول الحقد على الحجاج إلى الحقد على قومه وأهل بيته من بني عقيل.

ولما تولى سليمان الخلافة، عيّن صالح بن عبدالرحمن عاملاً للخراج في العراق، ثم كتب إليه سليمان أن يأخذ آل بني عقيل ويحاسبهم(٣).

---

(١) العقد الفريد: ج٥، ص١٨٤.

(٢) بطل السند: ص٦٠.

(٣) فتوح البلدان: ص٤٢٨. ومحمد الخضري بك: تاريخ الأمم الإسلامية، ج١، دار المعرفة، بيروت، ص١٧٠.

ومن كل هذا الذي تقدم، نكون قد عرفنا سبب تعذيب صالح بن عبدالرحمن للبطل محمد بن القاسم، والتنكيل به، والسخط عليه، والسعي للثأر منه فيما بعد حين يستكمل حبك المؤامرة لهذا الغرض.

ومما لا شك فيه أن هذا الفتى الثقفي يعرف قصة ذلك الثأر الدفين بين صالح والحجاج. غير أنه لا علاقة له بالموضوع بتاتاً، ولم يسهم فيه، حيث أنه كان يومذاك طفلاً صغيراً لا يتجاوز التاسعة من عمره. فليس من العدل في شيءٍ أن يؤخذ البريء بجريرة المسيء، أو أن يحاسب المرء عن ابن عمه.

وهكذا صار ابن القاسم حبيساً بين جدران سجنه، يعيش حياة الذل والهوان، ويتجرع كؤوس المرارة والعذاب، ولا أنيس له إلا ذكريات الجهاد والفتوح، فقال متمثلاً بقول الشاعر العرجي(١):

أضاعوني، وأي فتىً أضاعوا

ليوم كريهةٍ وسِدادِ ثَغْرِ

ويدور دولاب الزمن، وتجري الأيام والشهور، والبطل الأسير لايزال يقاسي محنته في غياهب السجن، فأخذ يرثي حاله بقوله من شعره:

فلئن ثويتُ بواسطٍ وبأرضها

رهن الحديد مكبلاً مغلولا

فلرُبَّ فتيةِ فارسٍ قد رُعْتُها

ولربَّ قرنٍ قد تركتُ قتيلا (٢)

إن هذين البيتين يصوران مأساة هذا الأسير ومعاناته. ومع ذلك بقي صابراً على تحمل سوء العذاب وشقاوة الحرمان. ولو كان يعلم أنه سيكون في مثل هذه الحال، لكان له سبيل

---

(١) العرجي: هو عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، من شعراء العصر الأموي. وكان قد شبَّبَ بجيداء أم محمد بن هشام بن إسماعيل خال الخليفة هشام بن عبدالملك، ليفضح ولدها الذي كان والياً على مكة، فسجنه تسع سنين إلى أن مات. / المصدر: الأغاني: ج٨، ترجمة العرجي.

(٢) فتوح البلدان: ص٤٢٨. والعقد الثمين: ص١٨٣. وكلمة «فارس» هنا: معناها: بلاد فارس.

آخر قبل أن يقبض عليه يزيد بن أبي كبشة، ويجعله مشدوداً في الوثاق. ولا وقع في يد صالح بن عبدالرحمن ويرمي به في السجن.

لقد كان باستطاعته أن يتخذ الفرار طريقاً للخلاص والنجاة من الأسر والتعذيب، لكن كبرياء نفسه منعته من ذلك، فقال مفتخراً:

ولو كنتُ أجمعتُ الفِرارَ لَوُطِّئَتْ
إناثٌ أُعِدّت للوغى وذكورُ (١)
وما دَخَلتْ خيلُ السكاسكِ (٢) أرضنا
ولا كانَ مِن عَكٍّ عليَّ أميرُ
ولا كنتُ للعبد المزونيِّ تابعاً
فيالك دهرٌ بالكرام عثورُ (٣)

٢ - **الافتراء عليه:** لم يقف خصوم محمد بن القاسم عند هذا الحد من التعذيب له، بل أخذوا يختلقون عليه الأكاذيب لتكون سبباً مباشراً من أسباب قتله، والخلاص منه. فلنبدأ الموضوع مرة أخرى من جديد.

لقد عرفنا قصة «سيتا» إبنة الملك داهر، وما كان بينها وبين الأمير محمد بن القاسم من مودة وحب، ثم كيف أنها قامت بالتآمر والخيانة، ثم جرى القبض عليها بالجرم المشهود. وكان آخر عهدنا بها أنها صارت أسيرة في دار الخلافة في دمشق. ومضى عليها هناك أربع سنوات، وكانت السنتان الأخيرتان منها في عهد الخليفة سليمان بن عبدالملك.

ولما وصل إليها الخبر أن بطل السند قد صار وراء القضبان في سجن واسط، وحطت به الأيام، ادعت أنه راودها عن نفسها، أو أرادها لنفسه، ولم تمكّنه من نفسها، فأخذها

---

(١) الإناث، المقصود بها: النوق. والذكور: تعني الخيول.

(٢) السكاسك: قوم يزيد بن أبي كبشة السكسكي.

(٣) فتوح البلدان: ص٤٢٨. وكلمة عثور على وزن «فعول» من الفعل الثلاثي «عَثَر» بمعنى: زَلَّ وكبا، والعثرة: الزلّة. والعثار: الزلل. وفي المثل: من سلك الجدد أمنَ العثارَ.

بـالقــوة(١). فغضب الخليفـة سليمان لهذا الخبر، دون تحقيق فيــه، وأمـر صـــالح بن عبدالرحمن بقتل محمد بن القاسم عقاباً له على هذه الفعلة الشنعاء.

قـتلــــه :

لقـد قُتل بطل السنـد في سجن واسـط سنـة ٩٨ هـــ. وبأمـر من الخليفـة سليمان بن عبدالملك من جراء غضب ثـار في نفسه لم يدع له مجالاً لتحـري الحقيقة فيما نُسب إلى هذا القتيل من تهمة باطلة.

نعم! هذه مأســاة فاتح السند ونهايتـه، لقد مـات قتيلاً بعد أن تألّب عليـه: هذا الافتراء المزعـوم، وذاك الحقد الـدفين، وذلك ا لثأر القـديم، فذهب ضحيـةً لهذه العـوامل الثلاثـة مجتمعة متكالبة.

والحديث ذو شجون، فقـد اعترفت «سيتا» بنت داهــر، فيما بعد، أمـام الخليفة سليمان بأنها كاذبة في ادعـائها، وأن ابن القاسم لم يعبث بشرفها، بل هو برىء ممـا اختلقته عليه، واتهمته به حقداً، وانتقاماً لأبيها، فاهتز الخليفة لما سمعه منها، وعزّ عليه مقتل ابن القاسم بسبب هذه الفرية، فأمر على الفـور بقتل «سيتا» جزاءً لها على ما تسببت في قتل بطل السند ظلماً وعدواناً.

أهل السند حزانى:

عندما قُتل محمـد بن القاسم، بكى أهل السند حزناً عليـه، وأقاموا له نصباً تـذكارياً في مدينة الكيرج، ليكون دليلاً مرئياً على مكانة هذا البطل العربي في قلوبهم.

وإن من بواعث الإعجـاب بشخصية هـذا القائد الشاب، ليس هـذه الفتوحـات العظيمة فحسب، بل حسن سياستـه للبلاد المفتوحـة، وتدبير أمـورها، وتأليف قلوب أهلهـا، وقد شرحنا ذلك بالتفصيل أيضاً. ثم إنه لا خلاف بين المؤرخين على تلك الصفات أو المزايا.

كان فاتح السند يسيطـر بخلقه وحسن سـيرته فوق ما يستولي بجنـده، وقد ترك هناك من فضائله ما جعل أهل السند يتعلقون به، ويتفانون لأجله. حيث نشر في عمّـاله دستوره

(١) محمود شاكر: التاريخ الإســلامي، المجلد الرابع، ط ٤، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٨٥م، ص٢٢٨.

القيّم الذي يقـول فيه: أنصفوا النـاس من أنفسكم، وإذا كانت قسمـة فاقسموا بـالسواء. وراعـوا في فرض الخراج مقـدرة الناس على أدائه، ولا تختلفـوا، ولا تنازعـوا فتشقى بكم البلاد(١).

السند بعد محمد بن القاسم:

بعد عـزل محمد بن القاسم عن ولايـة السند، جاء يزيـد بن أبي كبشة الذي مـات بعد ثمانية عشر يوماً من قدومه أرض السند. وهنا ثارت القلاقل والاضطرابات، وحاول أمراء الهنـدوس أن يستردوا إمـاراتهم، ومنهم جي سيـه بن داهـر، وذلك قبل قـدوم حبيب بن المهلب والياً على السند بأمر الخليفة سليمان بن عبـدالملك. فنزل حبيب على شـاطىء مهران، فأعطاه أهل الرور الطاعة، وحارب أقواماً آخرين فتغلب عليهم وظفر بهم.

ثم مات سليمان، وتـولى الخلافة بعده عمر بـن عبدالعزيز(٩٩ - ١٠١هـ) الذي سلك نهجاً جديـداً في الفتوحات، حيث رأى أن يتجه إلى نشر الإسلام في البـلاد المفتوحة، وتعليم الناس مبادىء هذا الدين الحنيف. فكتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة، على أن يظلـوا محتفظين بمراكـزهم، ولهم مـا للمسلمين، وعليهم مـا على المسلمين. وقد كـانت سيرته الطيبـة قد بلغت أسماع هؤلاء الملـوك، فأسلموا، وتسمّـوا بأسماء العرب، ومنهم جي سيه بن داهر(٢).

ولكن بعد وفـاة عمر بن عبـدالعزيـز، تغيرت الأحوال، فعـاد أمراء السنـد إلى ثوراتهم لاسترداد سلطانهم على بلادهم، وساعدهم على ذلك الأمر بعض العوامل والأسباب، والتي من أهمها:

١ - إن الخلفاء الذيـن جاءوا بعد عمر بن عبدالعـزيز (باستثناء هشـام بن عبدالملك) لم يزودوا الجيش الإسلامي الماكث في السند برجال بعد مقتل القائد محمد بن القاسم، مما أدى ظهور الضعف في هيبة السيطرة والإدارة يوماً بعد يوم.

٢ - كانت الفـرقة الهنـدية القويـة «راجبوت» في عنفـوان شبابها وبأسـهـا، وفي الوقت نفسه ما كان قائد المسلمين هناك في البسالة والشجاعة مثل محمد بن القاسم الثقفي.

---

(١) العقد الثمين: ص١٨٣.

(٢) فتوح البلدان: ص٤٢٨.

٣ - صارت ولاية السند ملجأً، أو ملاذاً للخارجين على الدولة، حيث هرب إليها آل المهلب، بعد فشل ثورتهم التي قادها يزيد بن المهلب ضد الخليفة يزيد بن عبدالملك سنة ١٠٢ هـ.

هذه العوامل الثلاثة كما يذكرها بعض الباحثين(١)، جعلت ولاية السند في ضعف مستمر، إلى أن تولى هشام بن عبدالملك.

وفي عهد هشام بن عبدالملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) قويت سياسة الدولة الأموية في إعادة الاستقرار إلى بلاد السند، والمحافظة عليها. حيث أسند هشام ولايتها إلى الجُنيد بن عبدالرحمن أحد رجاله الأقوياء، فإذا بهذا الوالي يقضي على الثورات هناك، ويوطد سلطان الإسلام، ويوزع عماله على المدن والقرى، ترسيخاً للوجود العربي الإسلامي. وبعد الجنيد جاء الحكم بن عوانة الكلبي، فبسط نفوذه، وأنشأ مدينة «المحفوظة» لتكون مركزاً لتجمع العرب الوافدين إليها. كما انشأ قائد عسكره عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي مدينة «المنصورة» على مقربة من برهمنا باد العتيقة. وقد عرضنا إلى هذا سابقاً.

وبعد وفاة هشام سنة ١٢٥ هـ، بدأ الضعف يدب في جسم الخلافة الأموية. وعلى الرغم من هذا الضعف، فإن الأمويين حافظوا على السند مع ما حافظوا عليه من الممالك والأمصار إلى نهاية عصرهم سنة ١٣٢ هـ.

الكلمة الأخيرة في هذا البحث:

لقد تم فتح السند في العصر الأموي، وعلى يد القائد البطل محمد بن القاسم الثقفي، الذي قدّم أعمالاً جليلة للعرب والمسلمين، وهو في ريعان الشباب، وأنه لم يُكتب لأي قائد إسلامي بعده أن يدرك المدى الذي وصل إليه في الفتوح في بلاد الهند والسند حتى عهد السلطان يمين الدولة محمود بن سُبُكْتُكِين الغزنوي في القرن الرابع الهجري.

هذا هو محمد بن القاسم الثقفي الذي يحتفظ به التاريخ في سجل الخالدين.

* * *

(١) محمد عالم الأفغاني: مجلة المنهل، السنة الرابعة، الجزء العاشر، المجلد الرابع، ص٩.



ملحق
الأوردو لغة السند



ملحق
الأوردو لغة السند

١ - قبل نشأة «الأوردو»:

فتح العرب المسلمون بلاد السند سنة ٨٩ هـ بقيادة محمد بن القاسم الثقفي. وقد وجدوا أن سكان هذه البلاد المفتوحة، لا تجمع بينهم لغة واحدة، بل كانت هناك عدة لغات ولهجات مختلفة، وعلى تفاوت فيما بينها من حيث الأهمية، والاتساع، والانتشار. ولكل لغة خصائصها وتأثيراتها.

ومن هذه اللغات:

اللغة الإيرانية بفرعيها: البارْسيّة Parsi (لغة الأدب، والبلاط، والدين، والتجارة)، والباشْتُو Pashto (التي يُنطق بها في بلوخستان الشمالية، وبلخ، والمناطق المتاخمة لجبال سليمان وممر خيبر).

واللغة التركية: (لغة الجيش).

واللغة الهندوسية : (لغة الفلسفة، والدين، والسلطان، والعامة).

ولغات آرية متنوعة Aryan (تنطق بها القبائل الغازية من أواسط آسيا كالهون والهياطلة، والقبائل الرعوية المتنقلة).

ولغة الرومانثي Romanthy (لغة الجات، أو الزط من الهنود)، وغير ذلك من اللهجات الأخرى Dialects.

ثم جاءتهم **العربية**، مع هذا الفتح الجديد لتصبح لغة الحكم، والقضاء الشرعي، والجيش، وتمسكت بها القبائل العربية التي استوطنت هناك، تعميقاً لجذورها في هذه البلاد التي صارت جزءاً من ديار الإسلام والمسلمين.

وبقي الأمر على هـذا النحو من التعـددية اللغـوية إلى حد كبير – مـع بعض الاستثناء – حتى قيام الـدولة الغزنويـة في منتصف القرن الرابع الهجـري (٣٥١ هـ = ٩٦٢م)، حيث حصل تداخل بين معظم تلك اللغات السابقـة، مع اختلاط في الالفاظ، واندماج في التراكيب، نتج عنه مزيج لغوي جديد أُطلق عليه اسم «لغة أُردو»، أو اللغة الأوردية.

٢ - أصل كلمة «أردو» Urdu:

من خلال النظـر في المعاجم اللغـوية: الأحـادية، والثنـائية، والعـودة إلى دوائر المعارف والموسوعات، بالإضافة إلى البحث والاستقصاء الميداني، حصلنا على تعريفات لهذه الكلمة، نعرضـها بحسب وجودها، وخطوات نموّها:

١ – يورت Yurt (كلمة روسية)، ومعناها:

اليُورْتة: التي هي خيمة جلدية، أو لُـبّادية من خيام بدو سيبيريا المغوليين.

(عن معجم «المورد»: انجليزي – عربي. منير البعلبكي).

٢ – يورد Yurd (كلمة تركية)، ومعناها:

منزل للطلاب يبيتون فيه، أو بيت للشبـاب يأوون إليه. ونقول على سبيل المثال: منازل طلاب القسم الداخلي في الجامعات، وبيوت الشباب المعروفة عالمياً.

(بحث واستقصاء في اللغة التركية الحديثة Yeni Turkca).

٣ – أُردو Urdu (كلمة تركية)، ومعناها: المعسكر (عن دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول).

٤ – أُردو Ordu: مرفأ في تركيا على البحر الأسود.

(عن معجم «المنجد في الأعلام»: عربي – عربي. الأب لويس اليسوعي).

٥ – أُردو Urdu لغة هندية أُشتقت من أصول متعددة.

(عن دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول).

٦ – أُوردو Urdu: لغة نشأتْ في الهند من اندماج الفارسية، والهندية، وبعض المفردات العربية والتركية.

(عن معجم المورد: إنجليزي – عربي).

٧ – الأوردية Urdu: لغة الباكستان الأدبية.

(عن معجم المورد: إنجليزي – عربي).

هذه هي جملة التعريفات الخاصة بكلمة «أُردو» التي تـوصلنا إليها، من خلال ما توافر لنـا من مصـادر ودراسـات، ومـاعثـرنا عليـه من معلـومـات، بقـدر المستطاع، في حـدود الإمكانات المتاحة.

والواضح من التعـريفات السـابقة، أن لغة الأوردو في الأصل مـرتبطة بجماعـة من الناس تعيش حياة مشتركة فيما بينها، وفي أحوال خاصة بها. ولكنها اختصت بالعسكر دون غيرهم.

٣ - نشأة اللغة الأوردية:

تعود اللغة الأوردية في نشأتها وتكوينها إلى عصر الدولـة الغزنوية. وملوك هذه الدولة هم من سـلالـة المماليك الأتـراك المسلمين، الـذين حكمـوا أفغـانستـان، وشرقي إيـران، والبنجـاب، وغجرات الهنـد (من سنـة ٣٥١ هـــ – ٥٨٢ هـ / ٩٦٢ – ١١٨٧م)، وكـانت مدينة «غَزْنة» الأفغانية عاصمة لهم. وقد أسسوا مدينة «لاهور» عاصمة بنجاب السند.

ومن أشهر ملـوكهم يمين الدولـة السلطان محمود بن سُبُكْتكين الغـزنوي، الـذي تولى الحكم من سنـة ٩٩٨ – ١٠٣٠م. وفي عهـده قام بفتـح بخارى، واحتل دويـلات مـا وراء النهـر، وبسط نفوذه على البنجـاب وغجـرات. وكـان جيشه يتألف مـن عناصر وأجنـاس مختلفة، ويتكلمون لغات متفرقة. إنـه جيش يتكوّن من الجنود الأتراك، والفرس، والهنود، الـذين كـانـوا يعيشـون جنبـاً إلى جنب في معسكـرات هـذا الجيش السلطـاني التي تسمى بالتركيـة «أوردو». ولذلك كـان من الضروري جداً أن تكون هنـاك أيضاً لغـة مشتركة بين هؤلاء العسكر، فكانت لغة «الأوردو».

ومن هنـا – وفي أيام السلطـان محمود الغـزنوي – وُضعت الأسس الأولى لهذه اللغـة، التي هي مزيـج من لغات الأجناس الثـلاثة المشـار إليها (التركية، والفـارسية والهنـدية)، فسميّت لغتهم «لغة أهل أردو»، أولغة «أُردو»، ليستطيعوا التفاهم فيما بينهم.

ومن جراء اختلاط جيش الفاتحين الغزنويين بسكـان البلاد التي فتحوها، أخذت ألفاظ من هنا وهناك تدخل في هذه اللغة الجديدة، بخاصـة من اللغة العربية (لغة القرآن الكريم)،

لتزيد في مفرداتها (الأوردية)، وجاء تشجيع السلطان لها، مما ساعد على نموّها وانتشارها، وصارت لغة رسمية للدولة الغزنوية الحاكمة، ولغة عدد كبير من الشعب مسلمين وغير مسلمين في أرجاء تلك الدولة، ومنها السند والهند.

والحقيقة التي لا جدال فيها أن لكل لغة في هذا المزيج تأثيرات تغلغلت في روحه، وتأصلت في كيانه. ولرب سائل يسأل: ما الدليل، أو الأدلة على تأثير اللغات الأخرى في اللغة الأوردية؟ أو بمعنى آخر: ماذا أخذت الأوردية من غيرها؟

إن الجواب جد قريب وبسيط. وهذا هو التوضيح:

تظهر تأثيرات اللغة الفارسية في الألفاظ والتراكيب، وأساليب الشعر، وأغراض العروض.

واعتمدت الأوردية على الهندية في أصول النحو، وقواعد اللغة، وكثير من الألفاظ المتداولة بين العامة والتي صارت القاعدة المشتركة بين جميع المتكلمين باللغات، أو اللهجات الهندية الأخرى.

ويبرز تأثير اللغة التركية في أنه صبغ الناطقين بلغة الأوردو بصبغة التجمع الواحد في البيئة الواحدة، فكأنهم في معسكر، ولهم لغة واحدة لغة الأوردو. ومن هنا تميزت السند بعد إسلامها بوقت طويل بلغة واحدة مفردة هي الأوردية، وبقيت محافظة عليها.

أما **العربية**، فيتجلى أثرها، أو تأثيرها في روح الأوردية من جهة، وفي شكلها العام من جهة أخرى. كيف؟ أولاً يتجلى في وجود هذه الألفاظ العربية المتداولة في اللغة الأوردية. ولا حاجة بنا إلى الدليل، لأن أي عربي يستمع إلى الحديث بالأوردية يستطيع تحديد الكلمات العربية التي دارت فيه.

هذا فيما يتعلق بالالفاظ، وهو أمر يتفق مع تأثيرات اللغات الأخرى، أما بالنسبة للتأثير في الشكل، فإن اللغة الأوردية كانت، ولاتزال، ترتكز في كتابتها على الحرف العربي، وخصوصيته: خطاً ورسماً واتجاهاً، بخلاف اللغة التركية التي تخلّت عن الحرف العربي، وطريقة كتابته منذ عهد مصطفى كمال أتاتورك، الذي فرض الحرف اللاتيني، بدلاً من ذلك، عندما نادى بالعلمانية Secularism، وذلك في سنة ١٩٢٣م.

٤ - تطور اللغة الأوردية:

حينما أصبحت اللغة الأوردية لغــة رسمية للدولة الغزنويــة، وحصل التفاهم بها نطقاً وكتابــة، ارتقتْ في مستواها حتى صارت اللغــة الثالثة بعــد العربية والفارسيــة، في تدوين الكتب الإسلامية، على حداثة عهدها. ثم أخــذت هذه اللغة في التطور بتأثير الأحوال الناشئة مع مرور الزمن، حيث دخلتْ فيها ألفاظ كثيرة من اللغة الإنجليزية بعد الاحتلال البريطاني للقارة الهندية بأكملها سنــة ١٨٥٧م. إلا أن هذه الألفاظ تُنطق بحسب أصلها، لكنها تُكتب بالحرف العربي مع شيء من التحريف، أو التحوير في بعض الأحيان.

ثم ازدادت الأوردية تطوراً بشكل بارز على الصعيد التــاريخي، حتى صارت لغة الدين والثقافة لمسلمــي شبه القارة الهندية كــافة إبان الاستعمار البريطاني، وكــانت تقف مقابل اللغة الهندوسية.

٥ - اللغة الأوردية في القرن العشرين:

بعد استقلال القــارة الهندية عن التاج البريطاني سنــة ١٩٤٧م، وانقسامها إلى دولتين: الهند، والباكستان، أُبعدت اللغة الأوردية عن مكــانتها الرسمية في دولة الهند، لتحل محلها اللغة الهندوسية، ويجاهد الهنود المسلمون هنــاك جهاداً مستمراً للاعتراف بالأوردية، ولو في الولايات الهندية ذات الأكثرية المسلمة فيها.

وعلى الرغــم من كل هذا، فإن اللغــة الأوردية – نتيجــة للظروف المختلفة – لاتــزال هي اللغة المشتركة Langua Franca بين معظم سكان الهند، على مختلف لغاتهم وأجناسهم، بحيث يستطيعون الوصول إلى التفاهم بها في مراكز العمل والحياة اليومية.

وإذا كان هذا هــو حال الأوردية في جمهورية الهند، منــذ الاستقلال وإلى اليوم، فإنها في جمهورية الباكستان الإسلامية، هي اللغة الرسمية للدولة، وللشعب هناك، ولا تزال. وهي تُكتب بالحروف العربية أيضاً.

* * *

* لمزيد من التفاصيل في هــذا الموضوع، يمكن الرجوع إلى المصــادر التي اعتمدنا عليها، ونقلنا جــانباً منها (بتصرف)، وهي: دائرة المعــارف الإسلامية، المجلد الأول: ص٥٩٤ – ص٦٠٧. وتاريــخ الإسلام في الهند. ص٤٢ – ص٤٤.





المصادر والمراجع



المصادر والمراجع

أولاً - المصادر العربية:

١ – **الأعلام** : خير الدين الزركلي.
ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.

٢ – **تاريخ الطبري** : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.
(تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م.

٣ – **جمهرة أنساب العرب**: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي .
ط١ الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

٤ – **دائرة المعارف** : المعلم بطرس البستاني.
دار المعرفة، بيروت. د. ت.

٥ – **دائرة المعارف الإسلامية:**

٦ – **الروض المعطار** : محمد بن عبدالمنعم الحميري .
(تحقيق د. إحسان عباس)، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠م.

٧ – **صفوة التفاسير** : الدكتور محمد علي الصابوني.
ط٢، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٩٨١م.

٨ – **الطبقات الكبرى**: محمد بن منيع بن سعد.
دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥م.

٩ – **العقد الفريد** : أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي.
(تحقيق د. محمد مفيد قميحة ود. عبدالمجيد الترحيني)، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

١٠ – **عيون الأخبار** : أبو محمد عبدالله بن قتيبة .

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

١١ – **فتح السند (جچنامة):** علي بن حامد بن أبي بكر الكوفي.

(تحقيق د. سهيل زكار)، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٢م.

١٢ – **فتح السند:** ن. أ. بلوش.

ط١، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٩١م.

١٣ – **فتوح البلدان:** الإمام أبو الحسن البلاذري.

(عُني بمراجعته والتعليق عليه: رضوان محمد رضوان)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

١٤ – **الكامل في التاريخ:** ابن الأثير.

منشورات دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥م.

١٥ – **مسند الإمام أحمد:** الإمام أحمد بن حنبل.

(تحقيق أحمد شاكر)، دار المعارف بمصر، ١٩٥٥م.

١٦ – **معجم البلدان:** ياقوت الحموي.

منشورات دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥م.

١٧ – **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة:** عمر رضا كحالة.

ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٨م.

١٨ – **معجم المنجد في اللغة والأعلام:** الأب لويس معلوف اليسوعي.

ط٣٠، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٨م.

١٩ – **معجم المورد:** منير البعلبكي.

ط٢٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢م.

٢٠ - **المعجم الوجيز**: مجمع اللغة العربية.

ط١، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٠م.

٢١ - **موسوعة دول العالم الإسلامي**: الدكتور شاكر مصطفى.

ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م.

٢٢ - **الموسوعة العربية الميسرة** .

(صـورة طبـق الأصل عن طبعـة ١٩٦٥م)، دار إحيـاء التراث العـربي، بيروت.

٢٣ - **نفح الطيب** : أحمد بن شهاب المَقَّري.

(تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد)، القاهرة، ١٩٤٩م.

ثانياً - المراجع العربية:

١ - **أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين**: الدكتور عبدالسلام الترمانيني.

ط١، دمشق، ١٩٨٨م.

٢ - **أدب العرب في عصر صدر الإسلام**: الدكتور حسن الحاج إبراهيم حسن.

الجامعة المفتوحة، ١٩٩٣م.

٣ - **بطل السند**: محمد عبدالغني حسن.

ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤م.

٤ - **ابن بطوطة ورحلاته**: الدكتور حسين مؤنس.

دار المعارف بمصر، ١٩٨٠م.

٥ - **تاريخ الأدب العربي**: الدكتور عمر فروخ.

ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.

٦ – **تاريخ الإسلام:** الدكتور حسن إبراهيم حسن.

ط٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٤م.

٧ – **تاريخ الإسلام في الهند:** الدكتور عبدالمنعم النمر.

ط٢، منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١م.

٨ – **التاريخ الإسلامي:** محمد أحمد شاكر.

ط٤، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٨٥م.

٩ – **خلافة بني أمية:** الدكتور نبيه عاقل.

ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٥م.

١٠ – **الدولة الأموية :** الدكتور يوسف العش.

ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.

١١ – **السياسة والأدب في العصر الأموي:** الدكتورة عزيزة فوّال بابتي.

ط١، دار الشمال للطبع والنشر، طرابلس – لبنان، ١٩٨٧م.

١٢ – **الشعوب الإسلامية:** الدكتور عبدالعزيز سليمان نوار.

دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٣م.

١٣ – **العالم الإسلامي في العصر الأموي:** الدكتور عبدالشافي محمد عبداللطيف.

ط١، دار الوفاء للطباعة، القاهرة، ١٩٨٤م.

١٤ – **العصر الجاهلي:** الدكتور شوقي ضيف.

دار المعارف بمصر، ١٩٦١م.

١٥ – **العقد الثمين في فتوح السند:** القاضي أبو المعالي أطهر المباركبوري.

بومباي – الهند، ١٩٦٨م.

١٦ – **الفتوحات الإسلامية:** السيد أحمد بن زيني دحلان.
الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٨م.

١٧ – **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية:** محمد الخضري بك.
دار المعرفة، بيروت، د. ت.

١٨ – **المختار الثقفي مرآة العصر الأموي:** الدكتور علي حسن الخربوطلي.
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د. ت.

١٩ – **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام:** الدكتور جواد علي.
ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧٦م.

٢٠ – **الوليد بن عبدالملك:** الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف.
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.

ثالثاً - المجلات:

١ – **المنهل** (مجلة تخدم الأدب والثقافة والعلم، المدينة المنورة، ١٣٥٥ هـ): عبدالقدوس الأنصاري.

١ : ١ – السنة الثالثة، الجزء العاشر، المجلد الثالث، رمضان ١٣٥٨ هـ / أكتوبر ١٩٣٩م.

مقال الأديب محمد عالم الأفغاني: فتوح السند – محمد بن القاسم الثقفي – ١ – .

١ : ٢ – السنة الثالثة، الجزء الحادي عشر، المجلد الثالث، ذو القعدة ١٣٥٨ هـ / ديسمبر ١٩٣٩م.

للأديب نفسه: فتوح السند – محمد بن القاسم الثقفي – ٢ – .

١ : ٣ – السنة الرابعة، الجزء التاسع، المجلد الرابع، شعبان ١٣٥٩ هـ / سبتمبر ١٩٤٠م.

للأديب نفسه : فتوح السند – محمد بن القاسم الثثفي – ٣ – .

١ : ٤ – السنة الرابعة، الجزء العاشر، المجلد الرابع، رمضان ١٣٥٩ هـ / أكتوبر ١٩٤٠م.

للأديب نفسه: فتوح السند – محمد بن القاسم الثقفي – ٤ – .

رابعاً - المراجع الأجنبية :

1. Encyclopaedia Britannica.
2. Nicholson : A Literary History of the Arabs, London, 1907.
3. The Reader's Companion to World Literature, Mentor Book, New York 1961.

فهرس المحتويات

صفحة

صفحـة

القســم الثاني

محمد بن القاسم الثقفي : فاتح السند

صفحة

صفحة

صفحة

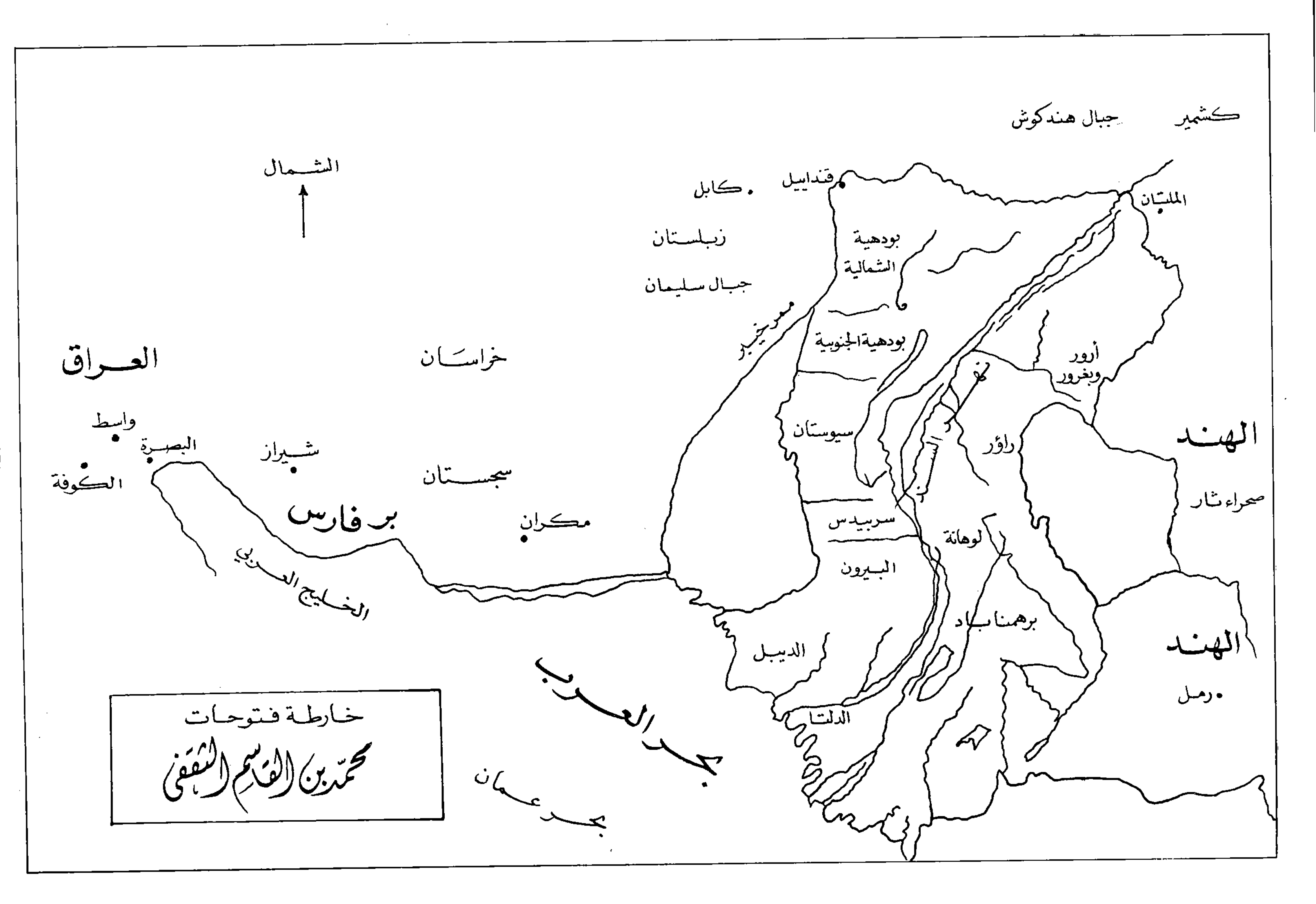


شجرة نسب ثقيف

(ثقيف)

- ١ - جُشم
  - حطيط
    - مالك
      - الحارث
        - حبيب
          - الحارث
            - ربيعة
              - عبدالله
                - * عثمان (صاحب لواء المشركين يوم حنين، وقُتل يومئذ كافراً)
                  - عبدالله
                    - * عبدالرحمن (والي الكوفة، ثم دمشق)
                      - * الحُرّ (والي الاندلس ٩٧ - ٩٩ هـ)
      - يسار
        - أبان
          - همام
            - عبدالله
              - عبد دهمان
                - بشر
                  - أبو العاصي
                    - *عثمان
                    - * الحكم
                    - * المغيرة
                    - (وهم أول من توجهوا إلى غزو السند سنة ١٥ هـ)
        - ربيعة
    - غاضرة
- ٢ - عوف
  - سعد
    - عمرو
      - كعب
        - مالك
          - * معتب (بعثه الرسول داعية للإسلام فقتله قومه بنو ثقيف)
            - مسعود
              - أبو عامر
                - شعبة
                  - * المغيرة (من أهل بيعة الرضوان، وكاتب الرسول، ومن دهاة العرب)
            - عامر
              - مسعود
                - أبو عقيل
                  - * الحكم
                    - يوسف
                      - ■ الحجاج (أمير العراق والمشرق، ومن عقبه بنو المنذر في باجة بالأندلس)
                    - محمد
                      - * يوسف (والي مكة)
                      - * مروان (والي اليمن)
                      - * القاسم (والي البصرة)
                        - ■ محمد (فاتح السند)
                      - * عبدالصمد (والي دمشق للوليد بن يزيد)
                      - عبدالله
  - غِيَرة
    - عقدة
      - عوف
        - ربيعة
        - عمير
          - عمرو
            - حبيب
              - * أبو محجن (الشاعر)
- ٣ - دارس (دخل في أهل اليمن)




خارطة فتوحات
محمد بن القاسم الثقفي
كشمير
جبال هندكوش
الملتان
قندابيل
كابل
زبلستان
جبال سليمان
بودهية الشمالية
بودهية الجنوبية
أرور وبغرور
الشمال
العراق
خراسان
واسط
البصرة
الكوفة
شيراز
سجستان
بر فارس
مكران
الخليج العربي
سيوستان
راؤر
الهند
صحراء ثار
سربيدس
لوهانة
البيرون
برهمناباد
الديبل
الدلتا
الهند
رمل
بحر العرب
بحر عمان

تصريح وزارة الإعلام والثقافة
رقم / أ ع ش / ٦٢٥
التاريخ : ٣/٣/١٩٩٧م

طبع في
مطبعة بن دسمال
فاكس: ٨٢٢٩٢٠، دبي - الإمارات العربية المتحدة